بلجريف ومشروع عبّاس باشا في الجزيرة العربيّة (١٢٦٤هـ/١٨٤٨م - ١٢٧٠هـ/١٨٥٤م)

أ.د. صالح بن محمد السنيدي
قسم التاريخ والحضارة بجامعة الإمام
محمد بن سعود الإسلامية

ملخّص البحث

في نهاية العقد الثامن من القرن الثالث عشر الهجري وبداية العقد السَّابع من القرن التَّاسع عشر الميلادي، جَابَ وليم بلجريف شبه الجزيرة من شمالها لشرقها مروراً بأقاليمها الدَّاخليَّة، في رحلةٍ لا تخفى دوافعها ولا أهدافها في ظلِّ تسابق استعماري مكشوف، وتطرَّق في سجل مذكراته إلى موضوعات متعددة من ضمنها «مشروع عبَّاس باشا لمحاولة التقارب مع عرب الجزيرة» واستقطابهم في تحالف عربي إقليمي ضد النفوذ الأجنبي. وقد حاولنا عرض هذا الموضوع الذي أشار إليه بلجريف وهو التحالف بين الحكومة المصرية ممثلة بعبَّاس باشا وبين عرب الجزيرة، إما على أنه احتمال قابل للتَّصديق أو أنه محض خيال، حاولنا أن ندرس فكرته ودواعيه ونضع مبررات وقوعه ونتائجه، مع ترك الباب مفتوحاً لدراسات لاحقة ومتخصصة لتجلية هذا الحدث.

وقبله كان لزاماً علينا التَّعريف ببلجريف صاحب الفكرة والرِّحلة، وكذلك إعطاء القارئ فكرةً موجزة عن عبَّاس باشا وعلاقته بالجزيرة العربيَّة.

تقديم

يمثِّل القرن الثالث عشر الهجري التاسع عشر الميلادي، مرحلة مهمَّة في ظاهرة الاستكشاف الأوروبي، وتحرُّكات رحَّالته الذين جابوا الآفاق للكشف والاستطلاع، بدوافع متعدِّدة قد تصنَّف على أنَّها دينيَّة بحتة أو سياسيَّة، وربَّما كانت بدوافع ذاتيَّة للبحث عن الشُّهرة والأمجاد وتحقيق الذَّات، من خلال مغامرة في أدغال أفريقيَّة أو جبال آسيا ووديانها. على أنَّ هذه الدَّوافع قد تجتمع كلُّها أو بعضها لدى رحَّالة واحد وهذا هو الأغلب، لأنَّ تكاليف هذه المهمَّة والتَّسهيلات التي تتطلَّبها ليست بمقدور شخصٍ بمفرده.

وموضوعنا الذي نتقدَّم به إلى القارئ الكريم، يشخِّص حالةً من هذه الحالات الاستكشافيَّة، وإسهاماتها في تجلية بعض الحقائق الجغرافيَّة والتاريخيَّة عن جزيرة العرب في حدود المساحة التي أتاحتها لنا جمعيَّتُنا التاريخيَّة الفاضلة.

في نهاية العقد الثامن من القرن الثالث عشر الهجري وبداية العقد السَّابع من القرن التَّاسع عشر الميلادي، جَابَ وليم بلجريف شبه الجزيرة من شمالها لشرقها مروراً بأقاليمها الدَّاخليَّة، في رحلةٍ لا تخفى دوافعها ولا أهدافها في ظلِّ تسابق استعماري مكشوف، لتقاسم تركة الرُّجل المريض الذي تكالبت عليه عوامل الاضمحلال والزَّوال، وتربَّص به المتربِّصون وذوي المشاريع الاستعماريَّة الكبرى من إنجليز وفرنسيِّين وغيرهم لتمزيقه وتقاسم أشلائه؛ وتطرق في سجل مذكراته إلى مواضيع متعددة من ضمنها مشروع عبَّاس باشا لمحاولة التقارب مع عرب الجزيرة واستقطابهم في تحالف عربي إقليمي ضد النفوذ الأجنبي.

فمن هو هذا الرَّحَّالة؟ وما مشروعه الذي سعى إليه؟ ومَنْ هي الأطراف المستهدفة والرَّئيسية فيه؟ وما نتائجه؟ لعلَّ الصَّفحات القادمة تلبِّي حاجة القارئ الكريم وتجيب على تساؤلاته.

وقبل ذلك، أودُّ أن أوضِّح للقارئ الكريم، أنَّ عملي في هذا الجهد المتواضع الذي أضعه أمامكم، هو عرض الموضوع الذي أشار إليه بلجريف وهو التَّحالف بين الحكومة المصرية ممثلة بعبَّاس باشا وبين عرب الجزيرة ،كاحتمال قابل للتصديق أو أنه مجرَّد حدس وتوقعات ترسَّخت في ذهن بلجريف، ولعلَّ الدراسات القادمة والجادَّة من جيل باحثينا الشَّباب، الذي واتته الفرصه للاطلا ع على الوثائق والاراشيف العربية والغربية والتركية ، يزيد الموضوع تجلية وتحقيقه .

أولاً ــ وليم بلجريف ورحلته لجزيرة العرب

١ ــ الرَّحالة: سِيرةٌ وتَعْريف

بلجريف الذي سنتوقَّف عنده بالحديث ونستمدُّ منه موضوعنا الذي نحن بصدد البحث عنه، هو وليم جيفور بَلجريف William Gifford Palgrave انجليزي الأصل، وُلِدَ سنة ١٨٣٨م/١٢٥٤هـ، من أبٍ يهوديٍّ اشتهر بالعلم والأدب، ونالت عائلته نصيبها من المكانة والاحترام في المجتمع الانجليزي، أمَّا «جفي» كما كانت تسمِّيه العائلة، فقد التحق بالجيش البريطاني بعد تخرُّجه من جامعة أكسفورد وتعيَّن في بومباي، لكنَّه انسحب من الجيش بعد سنة، لينضم إلى جماعة الآباء اليسوعيِّين النَّصرانيَّة، وقد واصل مشواره معها حتى أصبح قسّيساً في البعثة التَّبشيريَّة بلبنان، التي نجا منها بأعجوبة بعد المذبحة التي قام بها الدُّروز ضدَّ النَّصارى هناك، كان ذلك في صيف سنة ١٨٦٠م/١٢٧٦هـ ولذا فقد قاد حملة في أوروبَّا لإنقاذ نصارى لبنان ومساعدتهم على تجاوز محنتهم؛ وقبل المذبحة وأثناء وجوده في لبنان كانت له أنشطةٌ تجسُّسيَّة لصالح الغرب وتحريضيَّة لهؤلاء النَّصارى[١] .

وكان قبل ذلك قد درس العربيَّة وأجادها، بالإضافة إلى معرفته بعدد من اللغات الأخرى؛ ويبدو أنَّه شخصيَّة متقلِّبة قلقة، فبعد مسيرته الطَّويلة مع الكنيسة الكاثوليكيَّة تحوَّل إلى البروتستانتيَّة [٢] ، ثم ترك الكل وانضمَّ للخارجيَّة البريطانيَّة، ليتقلَّب في عدَّة مناصب، كان آخرها في أوروجواي التي توفيِّ فيها سنة ١٨٨٨م/١٣٠٥هـ.

---

(١) روبن بدول: الرحالة الغربيون في الجزيرة العربية، ترجمه: عبد الله آدم نصيف، الرياض ١٩٨٩م ص ٦٨.

البروتستانتية هي أحد مذاهب الدين النصراني. ينتشر نحو ٨٠٠ مليون بروتستانتي حول العالم، نشأت على يد مارتن لوثر في ألمانيا وقد انشقت عن الكنيسة الكاثوليكية في القرن السادس عشر، تتفرع منها العديد من الكنائس الأخرى تتراوح من ٢٨- ٤٠ ألف كنيسة ومذهب. والبروتستانتية مذهب عدد من الدول بما في ذلك الدانمارك وبريطانيا والنرويج والسويد. كما

(٢) أن للبروتستانتية أثراً قويا في التاريخ الثقافي والسياسي لتلك الأقطار. لمزيد من الاستزادة أنظر: ويكيبيديا: الموسوعة الحرة على الشبكة العنكبوتية، وما أوردته من مصادر ومراجع عن هذا الموضوع.

على أنَّنا لن نتوقَّف كثيراً عند التَّفاصيل المملَّة في حياة هذا الرُّجل، فقد كفانا ذلك عدد من الدَّارسين [1] ، لكنَّنا سنتوقَّف عند بعض المحطَّات التي لها علاقة بموضوعنا.

وقبل الدخول في الموضوع نتوقف لتجلية بعض النقاط المهمة في مسيرة هذا الرجل، مما له علاقة بشخصيته وأهداف رحلته وممموليها، والجدلية الدائرة حول صحَّة الرحلة وما ورد فيها من معلومات:

ــ رحلة بلجريف: بين الشَّكّ واليَقين:

أثارت رحلة بلجريف الكثير من التَّساؤلات والشُّكوك حول مدى صحَّة ما ورد فيها من معلومات، على الرّغم من أنَّها تُعَدُّ من أوائل وأجرأ المغامرات التي اقتحمت أواسط الجزيرة، مع شمولية في التَّغطية لكافة الجوانب السِّياسيَّة والجغرافيَّة والاجتماعيَّة ،

---

(١)عن حياة هذا الرجل ومسيرته العلميَّة والعمليَّة، أنظر: روبن بدول: الرَّحالة الغربيُّون، ص٦٧-٧٦ ؛ جاكلين بيرين: اكتشاف جزيرة العرب خمسة قرون من المغامرة والعلم، ترجمة: قدري قلعجي، منشورات الفاخرية الرياض ؟ ص٢٩٨-٣٢٢؛ عبد الفتاح أبو عليَّة: الدولة السعودية الثانية، الرياض ١٣٨٩هـ ص ١١٧-٨؛ أبو عبد الرحمن ابن عقيل الظاهري: مسائل من تاريخ الجزيرة العربية، الرياض ١٤١٥هـ ١٩٦- ٢١٢؛ عبد الله إبراهيم العسكر: «رحلة بلجريف معربة» المنشور بـ جريدة الرياض بتاريخ ٢٢- ٥ ٢٠٠٢م؛ محمد بن عبد الله آل زلفة: حائل في كتابات الرحالة وليام بلجريف، ترجمة وتعليق، الرياض٢٠١٤م ص٩-١٨؛ بنجامين برودي: بلجريف ونقاده، الرياض ٢٠١٢م؛ بيتر برينث: بلاد العرب القاصية، ترجمة: خالد عيسى وأحمد سبانو بيروت ١٩٩٠. ص١٦٥-١٧٩؛ لي ديفيد كوبر: كتابات الرحالة الأجانب كمرجع لدراسة الحركة الوهابية في القرن التاسع عشر، ترجمه: عبد الله ناصر الوليعي، القاهرة ١٩٩١م. ص٤١-٤٢؛ عبد العزيز عبد العزيز عبد الغني إبراهيم: روايات غربية عن رحلات في شبه الجزيرة العربية، دار الساقي، بيروت ٢٠١٣م ج٢ ص ١٠٠- ١٠٩. صالح محمد السنيدي: «القصيم في رحلة وليم بلجريف» السجل العلمي للقاء الجمعية التاريخية السعودية الحادي عشر بالقصيم ١٤٢٩/٢٠٠٨م؛ «حائل: في مذكرات الرحالة الانجليزي وليم بلجريف» ألقي في مؤتمر: «حائل في عيون الرحالة الأجانب» الذي نظمه النادي الأدبي في ربيع ١٤٣٦هـ/٢٠١٤. كما يمكن متابعة الموضوع بتوسع من خلال موسوعة «ويكيبيديا» باللغة الإنجليزية، مادة «بلجريف»: Wikipedia, the free Encyclopedia, (Palgrave

حيث استُقبل الكتاب عند نشره في بريطانيا سنة ١٨٦٥م/١٢٨٢هـ كأعظم كتاب وضع عن شبه الجزيرة العربيَّة [١] ، لكن بدأت السِّهام تتَّجه إليه بالنَّقد والتَّشكيك بعد ذلك، وتولَّى مواطنه جون فلبي عِبْء ذلك بعد أن تتبَّع مثالب بلجريف وهفواته وفنَّدها ميدانيّاً [٢]، حتى وصل به الأمر ليُشَكِّك في الرِّحلة ذاتها، وأنَّ بلجريف استقاها ممَّن تعرَّف بهم والتقاهم في بيروت [٣] ، كما توقف أستاذنا الدكتور عبد العزيز عبد الغني عند هذا الرحالة ورحلته بالنقد والتحليل وإن غلبت عليه النظرة التشاؤمية والتقليل من قدر ما أورده بلجريف من معلومات في مجمل ما كتبه [٤].

ومع أنَّ هذا الموضوع يطول ويشطح بنا عن أهدافنا التي حدَّدناها، إلاَّ أنَّ بلجريف قد قام برحلته، وفي أغلب محطَّات مسارها المحدَّدة فيما نراه، وإن تجاوز في بعض النُّقاط التي وطأتها قدماه، خاصَّة عنيزة التي ادَّعى أنه شَاهد منازلها واطَّلع على أسوارها، مع أنَّ عنيزة ذاتها كانت في هذه الفترة محاصرة ولا تسمح الحالة الأمنيَّة ولا العسكريَّة له أن يقترب منها [٥] ، ومثل ذلك ما قاله عن زيارته للمذنب، حينما كان في بريدة في يومٍ واحد، فهذا غير ممكن، كما أنَّ طريقها غيرُ آمنٍ [٦] ،

---

(١)جاكلين بيرين: اكتشاف جزيرة العرب، ٢٩٨.

(٢)تناول ذلك في كتابه: قلب الجزيرة العربية، ج٢. ص ١٦٨-٢٢٠.

(٣)جاكلين: اكتشاف جزيرة العرب، ٣١٥. ويسايره الباحث عدنان السيد محمد العوامي في التشكيك برحلة بلجريف وأنه اقتبس فكرة رحلته من مذكرات الرحالة الفرنسي لاسكاريس وحاول أن يدلل على كلامه بشواهد ومقارنات ذكرها في بحثه المعنون بـ «ترجمة رحلة بلجريف: ترجمة تحتاج لترجمة» مجلة الواحة العدد الستون - السنة السادسة عشرة - شتاء ٢٠١٠م.

(٤)فهو يرى أن «روايته للأحداث التي جرت في شبه الجزيرة العربية في الوقت الذي قام فيه برحلته وروايته للتاريخ كذلك، فهو سلسلة من المغالطات وتراجيديا اللامعقول» روايات غربية، ج٢ ص١٠١.

(٥)السنيدي: «القصيم في رحلة وليم بلجريف» ص٤٩٦-٩.

(٦)نفس المرجع، ص٥٠١.

بالإضافة إلى بعض الأماكن التي ذكرها فلبي كالأفلاج؛ وكذلك تيماء التي ذكر أنَّه يمكن رؤيتها من أعالي قمم سلسلة جبل شمَّر المحيطة بجبَّة، وهذه مبالغة لا تغتفر لبلجريف، لاسيَّما وأنَّها تبعد عنها مسافة تتجاوز ٢٥٠ كم، كما يقول المترجم [١]، ويبدو أنه استقاها من بعض مرافقيه دون تدقيق أو تمحيص.

لكن نعود لنقول: مع هذه المبالغات التي قَصَد منها بلجريف شمولية رحلته والسَّبق فيها، فقد يشفع له في سقطاته وهفواته التي لا تخفى، ذلك الكمّ الهائل من المعلومات التي أوردها، والتي تعتبر منهلاً ثريّاً لمن يكتب عن تاريخ وسط شبه الجزيرة العربيَّة وشمالها الشرقي في هذه الفترة.

لذا نرى أنَّها صحيحة ولا غُبَار عليها . على الأقل في منظورنا الشَّخصي . خاصَّة وقد أكَّد صحتها أولئك الرَّحالة الذين جاوؤا من بعده، أمثال: إدوارد نولد ودوغتي والليدي آن وهوجارث وداوتي مع بعض التَّحفظات التي أبداها بعضهم[٢]، ويضيف الدكتور العسكر هنا: « ولكنَّني على ما صرفتُ من الوقت والجهد للتَّأكد من هذه المسألة لم أظفر بطائل، بل العكس وجدتُ أنَّ شيوخ الرَّحالة الأوروبيِّين يشيدون ببلجريف ورحلته من أمثال: داوتي وبلنت اللذين اعتبرا كلَّ ما ذكره بلجريف صحيحاً، ويزيد عليهما لورانس الذي يضع بلجريف في مصافِّ فيلبي وتوماس، أمَّا هوجارث الذي ألَّف كتاباً نقديّاً عن الرَّحالة الغربيِّين إلى الجزيرة العربيَّة فهو مُعجبٌ ببلجريف، ويرى أنَّ معظم إن لم يكن كلّ ما ذكره بلجريف صحيحاً [٣]

---

(١)عوض البادي: الرحَّالة الأوربيون في شمال وسط الجزيرة العربية: منطقة حائل، الناشر: نادي حائل الأدبي، حائل ١٤٣٥هـ، ١٠٦/١، هـ(١).

(٢)آر. إي. تشيزمان: في شبه الجزيرة العربية المجهولة، ترجمة: عبد الله المطوع ومحمد الفريح، الناشر: مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض، ١٤١٩هـ، ص ١١٢-٣ ؛ جاكلين بيرين: اكتشاف جزيرة العرب، ص ٣٠٨-٩.

(٣)العسكر في «رحلة بلجريف معربة» جريدة الرياض. المنشور في ٥ -٦ -٢٠٠٢م

»، وهو ما يراه الدكتور البادي: (فلا يمكن عدّ كل ما جاء فيها من معلومات من نسج الخيال أو النقل عن آخرين [١]) وقد ناقش هذه الشكوك حول هذه الرحلة وما صاحبها بنجامين برودي في كتاب أطلق عليه: «بلجريف ونقّاده [٢]، عرض كلّ الآراء المعارضة والمؤيّدة للرّحلة وما دار حولها من لغط، وخلص إلى أنَّ الرجل مستهدف بسبب اتّهامه لأحد عملاء بريطانيا في الخليج، بالتّستُّر على تجارة الرّقيق؛ ونتيجةً لهذه الحملة القويَّة، تطلَّب الأمر التَّحقيق بمزاعم فيلبي بعدم صحة أسفار بلجريف، وكان بيللي هو المكلَّف بهذا التَّحرّي، لكن كانت نتيجة تحقيقاته هي إثبات هذه الرّحلة بتفاصيلها [٣].

ونحن مع هذا القول في أغلب ما أورده بلجريف، ولو بحثنا له عن عذرٍ لم يجده مواطنه فيلبي، لوجدناه في عدم التّهجئة الصَّحيحة للأسماء حيناً، والذّاكرة التي تخون صاحبها في أحيانٍ أخرى، لاسيَّما وأنَّ ضياع أوراقه في المركب كما يدَّعي، وعدم تمكُّنه من تسجيل ملحوظاته في حينه، كانا سبباً في هذا اللَّبس والخلط الذي لاحظه فيلبي على بعض مرويَّاته، مع أني أشكُّ أنه قد كتب كلَّ مادَّة كتابه بناءً على الذّاكرة، ولا أبرِّئ بلجريف من الاختلاق واعتماده على السَّماع أحياناً في وصف بعض المواقع التي لم تطأها قدماه،والتي أثبتها فيلبي بالبرهان والدَّليل القاطع؛ لكن أحياناً تدخل المنافسة والميول السِّياسيَّة، وحبّ السَّبق ونيل الحظوة في القضايا العلميَّة لاسيَّما إن وجد الطَّرف المنافس مجالاً لذلك،

---

(١) الرحالة الأوربيون ٩٣/١.

(٢)نشره وقدم له الدكتور: محمد آل زلفة، دار بلاد العرب، الرياض٢٠١٢م.

(٣)ص٨٩، وقد أورد نص رسالة بيللي حول هذا الموضوع، ص٩٠-١.

وهو ما حصل في حملة التَّشكيك التي تبناها فيلبي ضدَّه (١) ؛كما أنَّ تقلُّبات بلجريف السِّياسيَّة والمذهبيَّة خلقت له الكثير من الأعداء، فهو نصف يهودي ونصف إنجليزي، اعتنق الكثلكة ودخل في سلك المنظَّمة اليسوعيَّة، وانضمَّ إلى الفرنسيِّين، ثم ترك منظَّمته تلك، وتنكَّر للكثلكة ليعود للبروتستانتيَّة موجِّهاً للكاثوليكيَّة هجوماً عنيفاً، ثم يترك الكلّ وينضمّ للخارجيَّة البريطانيَّة (٢) ، مما عرضه للنَّقد والتَّشكيك في أقواله وأفعاله.

ولعلَّ بعض مؤيِّديه الذين أرجعوا أصل هذا التشكيك إلى معاداة السَّاميَّة ويقصدون بها يهوديَّة الرجل لها وجاهتها(٣)، ونضيف أن علاقة بلجريف بالفرنسيِّين هي الأخرى أوجدت حساسيَّة من نوعٍ خاص لدى مواطنيه الانجليز.

هذا هو بلجريف الذي قامت حوله المداولات والظُّنون منذ أن كان يافعاً وحتى بعد وفاته بسنوات طوال (٤) ، فأصبح مجرَّد ذكر اسمه يثير التَّساؤل وحبَّ الاستطلاع، وأعتقدُ أنَّ جون فيلبي منحه الشُّهرة من أوسع أبوابها من حيث لا يقصد، فهناك من لم يسمع به ولا برحلته إلاَّ بعد هذه الضَّجة التي أثارها حوله.

---

(١)الدكتور عبد الله العسكر في «رحلة بلجريف معربة» جريدة الرياض.نفس العدد. وقف عند هذه النقطة بالذات وأبدى فيه رأيه الذي يؤيد ما ذكرناه. «إن بلجريف رسم خريطة للرياض، ووصف بلاط الإمام فيصل بن تركي وصفاً لا يمكن لغير من رآه رأي العين أن يكتب مثله، لهذا كله فلا يشك المختصون في صدق الرحلة، وإن كانوا يتحفظون على بعض ما ورد فيها. ومن أشدِّ الناقدين والمشككين في رحلة بلجريف، بل من أوائلهم هو جون فيلبي، ولا يستبعد أن شكوك فيلبي قامت على أسس مفهومة، فبلجريف لم يدع باباً للشَّك في رحلته إلا وأبقاه موارباً، وفوق هذا لا يستبعد أن شك فيلبي صادر عن المنافسة والمزاحمة». وللشيخ ابن عقيل موقف بين هؤلاء وأولئك بعد أن ناقش المسألة باستفاضة وعرض الآراء المختلفة، لكنه لم يحسم المسألة، أنصح من يريد دراسة هذا الموضوع بمراجعة ما كتبه في: مسائل من تاريخ الجزيرة، ص١٩٦– ٢١٢.

(٢)جاكلين بيرين: اكتشاف جزيرة العرب، ص٣٠٨. موسوعة «ويكيبيديا» باللغة الإنجليزية، مادة «بلجريف»: (Wikipedia, the free Encyclopedia, (Palgrave

(٣)برودي: بلجريف ونقاده، ٢٩،١٠٢.

(٤)العسكر: «رحلة بلجريف معربة» المنشور في جريدة الرياض بتاريخ ٥ـ ٦ – ٢٠٠٢م.

ـــ بلجريف والفرنسيّين:

بدأت طموحات بلجريف الشّخصيّة تظهر بوضوح، بعد مذبحة النّصارى في لبنان وكان شاهداً عليها، بعدها حمل لواء الدّفاع عن هذه القضيّة في شتّى المحافل، لدى البَابَا في روما خاصة وفي أوروبَّا قاطبةً، وأخيراً وجد مفاتيح تحقيق أحلامه ومطامحه في شخصيّة نابليون الثّالث إمبراطور فرنسا (١٢٦٤هـ/١٨٤٨ —١٢٨٧هـ/ ١٨٧٠م) الذي يعتبر نفسه حامياً لنصارى الشّرق، ويحلم في تأسيس محميَّتين عربيَّتين إحداهما في مصر والأخرى في سوريا ولبنان [١] ، ويحدوه الشّوق إلى توسيع نفوذ إمبراطوريّته فيما وراءهما، وهذا ما استغلّه بلجريف أيّما استغلال، فمن هذا المنطلق عرض عليه أن تكون الجزيرة العربيّة ذات الثُّقل الدِّيني والمعنوي داخل إطار هذا النُّفوذ، وسيقوم بمهمّته تلك من خلال رحلةٍ استطلاعيّة يجوب بها هذه الدِّيار، وسرعان ما اقتنع نابليون بشخصيَّة بلجريف ذات المؤهِّلات العالية،

فإلى جانب اللغات التي يجيدها، فلديه الخبرة والدّبلوماسيّة واللباقة وحبّ المغامرة التي تجعل منه الشّخصيّة المطلوبة[٢].

ويمكن تعرُّف الأهداف الفرنسيَّة من خلال تقارير بلجريف نفسه في مذكِّرات رحلته هذه، واهتمامات فرنسا التَّوسعيَّة ومنافسة النُّفوذ البريطاني في تلك الفترة[٣] .

---

(١)لي ديفيد كوبر: كتابات الرحالة الأجانب، ص ٤١-٢؛ جون فلبي: قلب الجزيرة العربية، ط. دار العبيكان، الرياض ١٤٢٣هـ، ١٩٣/٢-١٩٥.

(٢)بيتر برينث: بلاد العرب القاصية، ١٦٨.

(٣)يركز البعض على الأهداف الدينية لرحلة بلجريف وأنه عرض على إمبراطور فرنسا تنصير سكان شمال الجزيرة العربية؛ أنظر: بيتر برينث: بلاد العرب القاصية، ص١٦٨؛ لكن لا نعتقد أن نابليون بهذه السذاجة، فمسألة التّحول من دين لآخر ليست بهذه السهولة والبساطة، وهاهم نصارى لبنان يتعرضون للتصفية في أوساط لا تقبل بوجودهم وتعدهم غرباء، ثم كيف يقوم بهذه المهمة رجل واحد بمفرده؟ كل هذه المعطيات تؤيد الأهداف التي سنذكرها، وهي أهداف ذات أبعاد سياسية واقتصادية، ولا يمنع أن يكون هناك اهتمام ديني من قبل بلجريف سواء على المستوى الفردي أو بتمويل من الجمعيات التبشيرية التي تريد معرفة ما بداخل الجزيرة العربية. وقد ناقش جون فلبي هذه الأهداف وخلص إلى أنها أهداف دينية وسياسية تصب في مصلحة فرنسا. أنظر: قلب الجزيرة العربية، ١٩٣/٢- ١٩٥.

وقد ناقشتُ مشروع فرنسا التوسعي والصراع بينها وبين بريطانيا على المنطقة العربية في كتابي: «رحالة إسباني في الجزيرة العربيَّة[١] بشيء من التوسع، وتجلّى هذا الاهتمام في رحلات عدد الرحالة والمستكشفين الذين أرسلتهم وموَّلت رحلاتهم فرنسا, ابتداءً بدومنجو باديا وانتهاءاً ببلجريف مدار حديثنا ومن جاء بعده.

٢ـ الرِّحلة: أهدافها ومقاصدها

كفانا بلجريف نفسه مشقَّة البحث عن مقاصد رحلته وأهدافها؛ إذ قال في مقدمته لسجلِّ جولته هذه: «ربَّما يودُّ . القاري . أن يعرف الهدف المخصَّص لهذه الرِّحلة والظُّروف الحاكمة لها، لقد كان يحدُوني أملٌ كبيرٌ في الإسهام بشيءٍ من أجل الصَّالح الاجتماعي لهذه المناطق الشَّاسعة؛ كما يحدُوني أملَ تحريك مياه الحياة الشرقيَّة الرَّاكدة، حتى تلحق بأنهار التَّقدم الأوروبِّي الجارية وتتَّصل بها؛ وربَّما لديَّ أيضاً دافع لتعرُّف ذلك الذي كنتُ أجهله حتى ذلك الحين، وكذلك الرَّغبة في الاستكشاف التي تملأ قلوب الإنجليز. كانت تلك هي الدَّوافع الأساسيَّة، ويمكن لي ... أن أضيف إلى ذلك، أنَّني كنتُ منضمّاً في ذلك الوقت إلى الجمعيَّة اليسوعيَّة، تلك الجمعيَّة التي اشتهرت في حوليَّات التَّاريخ بأعمالها التي تستهدف حبَّ البشر والنّاس، ويجب . أيضاً . أن أعترفَ ... بخالص شُكري لإمبراطور فرنسا الحالي، على كرمه في توفير المخصَّصات النَّقدية اللاَّزمة لهذه الرِّحلة [٢] « على أنَّه يعود ليؤكِّد حقيقةً يسعى إليها كبار المستعمرين في تلك الفترة، وهي دراسة المناطق والشُّعوب التي من الممكن أن تكون أهدافاً مستقبليَّة لهم [٣] .

---

(١)نشرته دارة الملك عبد العزيز بالرياض ١٤٢٩هـ. ص٩٢-٥ وقد فاز بجائزة الملك سلمان حفظه الله لأبحاث الجزيرة العربية المترجمة لهذا للعام ١٤٣٥هـ؛ وانظر كذلك: أبو علية: الدولة السعودية الثانية، ص١٢٠- ١. مع ما ذكرناه من مراجع في هامش سابق.

(٢)الرحلة، ١/ ١٠؛ وقد تمَّ تسليم بلجريف مبلغ ستة آلاف فرنك لتنفيذ هذه الرحلة. أنظر: بيتر برينث: بلاد العرب القاصية، ص١٦٩.

(٣)الرحلة، ١/ ١٠. ونقصد هنا رحلة بلجريف ذاتها (وسط الجزيرة العربية وشرقها) ونشرها المجلس الأعلى للثَّقافة بالقاهرة، وسنرمز بهذا الرمز لهذا الكتاب في باقي هوامش البحث.

كما يؤكد على الجانب المعرفي عن داخل الجزيرة العربيّة، الذي ظلّ بحاجة إلى كشف غموضه وإزالة اللبس حوله «هل ما نعرفه الآن يجنّبنا مخاطر الرّوايات والأوصاف التي تفتقر إلى الدِّقة والكمال؟

وهل رَدْم هذه الفجوة التي سنحاول ردمها في خريطة آسيا برغم المخاطر التي قد تترتَّب على ذلك، ستجعل الأرض التي أمامنا مقبرة لنا؟ أم سنغيِّرها من أقصاها إلى أقصاها ونعرف كل ما تحتوي عليه؟ لا تراجع إلى الوراء [١].

إذاً, أهدافٌ واضحةٌ وجليَّة، لا تحتاج إلى مزيد من التَّوضيح, ولا تخرج عمَّا ذكرناه في مطلع حديثنا، من أنَّها جمعت بين الأهداف الشَّخصيَّة والدِّينيَّة والسِّياسيَّة. لكن هذه الأهداف المعلنة من قبل أغلب الرَّحالة والجوَّالين، قد تخفي وراءها نوايا ومقاصد خفيَّة تطرَّق إليها عدد من الباحثين [٢] ، لكن علينا أن ندرك أنَّ هؤلاء الرَّحالة والمستكشفين عُمُوماً، يفدون إلى تلك البلاد التي يريدون اكتشافها ودراسة أهلها في ثقافتهم ومعتقداتهم، وهم في غالبيَّتهم قد تشبَّعوا بآراء وأفكار ترسَّخت في أذهانهم، على أنَّها حقائق مسلَّمة لا تقبل الجدل، استقوها بطريقةٍ أو بأخرى، دون أن يكلِّفوا أنفسهم عناء مناقشتها ودراستها بتجرُّد [٣]،

---

(١)الرحلة، ١/١٨.

(٢)من الممكن مراجعة البحث المميَّز الذي كتبه: أسعد عيد الفارس: «الرحالة الغربيون في شبه الجزيرة العربية أهدافهم وغاياتهم» بحوث ندوة الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية المنعقدة بالرياض ٢٤-٢٧ رجب ١٤٢١هـ الموافق ٢١-٢٤ أكتوبر ٢٠٠٠م وقد صدر سجل هذه الندوة بعنوان: الرحلات إلى شبه الجزيرة العربية، إصدارات دارة الملك عبد العزيز بالرياض ١٤٢٤هـ ج١ ص٥٥٧-٥٧١. وكذلك فؤاد شعبان: «أعمال الرحالة والمبشرين في العالم العربي١٨٠٠-١٩١٥م تحليل وصفي»، ضمن بحوث ندوة كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور، وقد صدرت بحوث هذه الندوة بعنوان: كتابات الرحالة والمبعوثين عن منطقة الخليج العربي عبر العصور، إصدارات مركز جمعة الماجد، دبي ١٩٩٦م ص ٢١٩-٢٤٥؛ ديل ف. إيكلمان: «كتابات الرحالة الغربيين عن المجتمعات الإسلامية والخليج العربي محاولة في التقويم»، ضمن بحوث الندوة السابقة، وضمن السجل السابق الذكر، ص ٣٥٥- ٣٦١.

(٣)باركلي رونكيير: عبر الأراضي الوهابية على ظهر جمل، ترجمة: منصور محمد الخريجي، مكتبة العبيكان، الرياض ٢٠٠٣م. ص١٩

ـــ الاستعداد للسَّفر:

وللقيام بهذه المهمَّة لا بُدَّ من الإعداد والتَّرتيب، الذي بدأت خطواته في سُوريا، ليواصل مشروع رحلته ويهيِّئ أموره في كنيستها الكاثوليكيَّة، فصار يُدعى بالأب ميخائيل كوهين أو ميخائيل سهبل (١) ، مما أهَّله لتعرُّف الأحوال، ليس لرعايا الكنيسة فقط بل للتَّجمعات العربيَّة الأخرى، خاصَّة القادمة من الجزيرة العربيَّة هدف الرِّحلة، وهو ما نستشفّه من روايته بنفسه في مذكِّراته هذه، عندما كادت أوراقه أن تنكشف في حائل بعد أن تعرف عليه ذلك القصيمي (٢) .

وقد تسمَّى هو بسليم أبو محمود العيس (٣) el- Eys (٤) أمَّا مرافقه في هذه الرِّحلة، فقد كان شاباً من مدينة زحلة، انتحل صفة زوج شقيقة بلجريف، وتظاهر معه بأنَّه تاجر جملة تارة، ومساعداً لبلجريف في الطِّبِّ تارةً أخرى، وتسمَّى ببركات الشَّامي (٥).

---

(١)روبن بدول: الرحالة الغربيون، ص٦٩. موسوعة «ويكيبيديا» باللغة الإنجليزية، مادة «بلجريف»:
(Wikipedia, the free Encyclopedia, (Palgrave

(٢)يقول عن ذلك المكان الذي قال القصيمي إنه رآه فيه بسوريا: «فالمكان الذي ذكره ذلك القصيمي، هو عبارة عن مكان يلجأ إليه في معظم الأحيان أولئك الرجال أشباه الجواسيس وأشباه الرَّحالة، بل كل المتآمرين من المناطق الداخلية، بل ومن نجد ذاتها» الرحلة: ١/١٣٥.

(٣) « وقد ترجمها: الدكتور عبد الله نصيف في الرحالة الغربيون، ص٦٩، «العيسى»، وكذلك العسكر في بحثه السابق الذكر بجريدة الرياض. بينما نجد الأستاذ: صبري محمد حسن يترجمها «العيص» وسليم: سليمان. ومرة أخرى : سليم. أنظر: الرحلة نفسها ج١/٥، ١٨٦. وفي بيتر برينث: بلاد العرب القاصية، ص١٦٩ هو: سليم أبو محمد إلياس. أما عوض البادي فقد ترجمها «العيس» وهذه هي الأقرب وهو ما يتماشى مع منطوق الأصل الانجليزي، الرحالة، ١/١٤٥. ويقول مرشدهم أبو عيسى الذي تعرَّفوا عليه في بريدة ورافقهم إلى الرياض والقطيف، بأن بلجريف كان يسمي نفسه «عيسى» نسبة إلى بني عيسى بالموصل، فاقترح عليه أن يضع قبله «الحاج محمود» ويؤكد على نصرانية الاثنين رغم تظاهرهما بالإسلام. برودي: بلجريف ونقاده، ص٩٣-٤.

(4)W.G. Palgrave, Central and Estern Arabia, (18623-) london 1985 t.1 p. 103.

(٥)أنظر: الرحلة، ١/١٩-٢٢. هذا الشَّاب كان من أصول يونانية يعمل مديراً لإحدى المدارس في زحلة بلبنان، ويتكلم العربية كواحد من أبنائها، كما أن مظهره وملامحه تكاد تكون عربية، واسمه الحقيقي جريجوري، وقد ترك بلجريف في الخليج ورجع إلى وطنه ليصبح قسيساً ثم بطريقاً للأرثوذكس الشرقيين؛ أنظر: روبن بدول: الرحالة الغربيون، ٦٩، ٧٤.

وقد تنكّرا في شخصيَّة طبيب عربي ومساعده، لكنَّهما كانا يُمازجان ما بين الطِّبِّ والتِّجارة حسب الظُّروف، فبينما اختارا مهنة التِّجارة وتصريف ما يحملانه من البنِّ والقماش في الجوف، قرَّرا أن يقتصرا في حائل على مُمارسة التَّطبيب، وفي بريدة لا هذا ولا ذاك، أمَّا في الرِّياض فقد زاولا مهنة الطِّبّ.

وعن مهنته التي ادَّعاها يقول: «كنتُ أرتدي زيَّ طبيب وطني رحَّال، أو إن شئتَ فقلْ: طبيباً دجَّالاً»[١] وعن أدويته يقول: «بأنَّها بلغت خمسين صندوقاً تحتوي على ما يكفي لشفاء أو قتل نصف مرضى الجزيرة العربيَّة [٢]»، يضيف في موقع آخر من مذكِّراته: «وأنا هنا ... أستميح كليَّة الطِّبِّ عذراً...على انتحال صفة الطَّبيب التي أنا عليها الآن، فأنا لم أحصل على أيَّة درجة علميَّة»، وإن أشار إلى أنَّه حصل على بعض الخبرة والممارسة من باب الهواية وكثرة الاطِّلاع [٣].

أمَّا عن مرشد الرِّحلة وأدلاَّئها في مرحلتها الأولى، فقد كانوا ثلاثة من البدو، سليم من عرب الحويطات وهو آمرهم واثنان من الشَّرارات [٤] ، لكن سليم توقَّف على مشارف الجوف لثأرٍ كان ينتظره هناك فعاد أدراجه [٥]، فحلَّ محله مرافق آخر اختاره سليم، وهو سليمان العازمي الذي أوصلهم إلى الجوف؛ بعدها اختاروا مرافقاً آخر لا هو بفلاَّح ولا بدوي وإنَّما هو شيء بين ذلك وهو جديع [٦] أحد سكَّان بلدة جبَّة[٧] الذي واصل الطَّريق معهم إلى حائل.

---

(١)الرحلة، ٢١/١.

(٢) نفسه، ٢٢/١.

(٣)الرحلة، ١٧٦/١.

(٤)الرحلة، ١٩/١-٢٠.

(٥)الرحلة، ٦٢/١.

(٦)الرحلة، ١٠٩/١، ١٢٣.

(٧) إحدى قرى حائل الواقعة بالنفود الكبير وسيأتي الحديث عنها.

ـ مَسَار الرّحلة وسجلّ وقائعها:

وصل بلجريف إلى أواسط شبه الجزيرة العربيَّة وشمالها، منطلقاً من معَان بالأردن في منتصف سنة ١٨٦٢م/١٢٧٨هـ. وقد كانت الجوف أولى محطَّات رحلته، انطلق منها إلى حائل فالقصيم ثم الرِّياض فالأحساء، مواصلاً رحلته إلى أقاصي الخليج العربي مروراً بدويلاته المتعدِّدة. على أنَّ بلجريف تميز عن غيره من الرَّحالة والمستكشفين، بالغوص في أعماق تلك المجتمعات التي زارها، فاهتمَّ بالجوانب الدِّيموغرافيَّة والأنثروبولوجيَّة، بالإضافة إلى اهتمامه بالجوانب الطُّبوغرافيَّة والتَّاريخيَّة والسِّياسيَّة.

وقد جمع مادَّة رحلته هذه في كتابٍ أسماه «وسط الجزيرة العربيَّة وشرقها[١]» في مجلدين وقد اعتمدتُ على التَّرجمة العربيَّة لهذا الكتاب، خاصَّة تلك التي ترجمها صبري محمد حسن ونشرها المجلس الأعلى للثَّقافة بالقاهرة[٢]،

مع الرُّجوع إلى الأصل الانجليزي كلما دعت الحاجة لذلك[٣]؛ واستشرت كذلك النسخة التي ظهرت مؤخراً بمجلد واحد بجهود الدكتور محمد آل زلفة بعنوان: حائل في كتاب الرَّحالة ويليام بلجريف نشرته: دار بلاد العرب الرياض١٤٣٥هـ؛ والدكتور عوض البادي في كتابه: الرَّحالة الأوربيون، وهو ترجمة للجزء المختصر من رحلة بلجريف[٤].

---

(١)هذا الاسم يختلف في صيغته بين المترجمين لكنها اختلافات لا تغيِّر المعنى المقصود.

(٢)هذه الترجمة جاءت في مجلدين وصدرت بالقاهرة سنة ٢٠٠١م، وقد علَّق على ما أثاره بلجريف من قضايا دينية الدكتور: حلمي عبد المنعم من جامعة الأزهر. لكن الترجمة مليئة بالأخطاء خاصة في الأسماء التي اجتهد الأستاذ المترجم في تهجئتها، مع أنَّ بإمكانه السُّؤال أو البحث عنها: فشمَّر تنقلب إلى شومر، وجبل أجا يصبح: جبل أجاع، ووادي الرّمة يتحوَّل إلى وادي الرّماح. وقد استعرض الدكتور العسكر هذه الترجمة، ووقف عند خصائصها وأخطائها، وأشار إلى جملة كبيرة منها. أنظر: : «رحلة بلجريف معربة» جريدة الرياض. في ٥ – ٦ -٢٠٠٢م. وهذا يستوجب ترجمة النَّص من جديد مع الدراسة والتعليق من قبل مختصين في تاريخ وجغرافية الجزيرة العربية.

(3)W.G. Palgrave, Central and Estern Arabia, 2t.

(٤)وهو بعنوان: حكاية رحلة عام عبر وسط وشرق الجزيرة العربية: Personal Narrative of a Year Journey Through Central and Eastern Arabia وهو تنقيح واختصار لكتابه الآخر ذو المجلدين.

وقبل الوقوف على وقائع هذه الرّحلة وما تحمله من معانٍ، علينا أن نتوقف عند النُّقاط التّالية:

- التّوقيت:

جاءت هذه الرِّحلة في فترة ساخنة قلقة، تميزت بتقلُّباتها وأحداثها، وتنامي الأطماع الاستعماريَّة والصِّراع المستتر تارةً والمعلن تارة أخرى بين القوى الاستعمارية خاصة فرنسا وبريطانيا فيما بينها، وبين الدَّولة العثمانيَّة في أحيانٍ أخر [1] ، التي زحفت عليها مظاهر الشَّيخوخة، وكذلك الدَّولة السُّعوديَّة الثانية التي نهضت من كبوتها واستعادت عافيتها ونفوذها من جديد بهمَّة زعيمها الإمام فيصل بن تُركي، خاصة وأنَّ لها من المبادئ والأنصار ما يجعلها مُنافساً محتملاً في المستقبل؛ وأوروبَّا نفسها التي تعيش مَخَاضَ عصر التَّوسُّع، والاقتصاد النَّامي، وفكرة سيطرة الرُّجل الأبيض، التي تكرسها هذه الرِّحلة، وتعلن أنَّ مهمَّتها هي استبيان الأحوال وكشف المجهول، فهي استطلاعيَّة واستكشافيَّة إلى جانب كونها سياسيَّة ودينيَّة كما ذكرنا سابقاً.

ـ مواضيع سجلِّ الرِّحلة:

ليس هذا السِّجل كتاباً في الرَّحلات على غرار كتب هذا الفنّ المعروفة، بل هو أكثر من ذلك بكثير، «فهو يَحوي علوماً وثقافات ومعارف كثيرة، وهو كتاب نَظَر وفِكْر، وهو كتاب سياسة واجتماع، وكتاب أرْضٍ ونَاسٍ، وكتاب دِينٍ ونَقْد، ولأنَّ الكتاب أُعِدَّ بطريقة وأسلوب جديدين، فقد أحجم المترجمون عن تناوله، وذلك لصعوبة الإلمام بكلِّ فنون الكتاب [2].

---

(١)العسكر: «رحلة بلجريف معربة» المنشور في جريدة الرياض بتاريخ ٥ . ٦ – ٢٠٠٢م.

(٢)الرحلة، ١/١٢-١٤.

ـــ مصادر مادّة الرّحلة العلميّة:

مع أنّه أمدّنا بقائمة طويلة لمصادر معلوماته المكتوبة [١] ، إلاّ أنّ اعتماده على المصادر الشفويّة يبدو طاغياً على ما كتبه، يلحظه القارئ بوضوح، خاصّة وأنّه في غالبه يعتمد على المشاهدة والسّماع والوصف، يقول في هذا الشّأن: «فإني سوف أعتمد على موثوقية المعلومات التي حصلتُ عليها من سكّان هذه المنطقة، ومن المواطنين بصورة عامة، ومن التُّجار، أو من المسافرين[٢]. لذا فبقدر ما تحمله من مصداقية ومعاصرة وقيمة توثيقيّة، ففيها احتمالية كبيرة للمبالغة وعدم الدّقة بحسب مصادرها.

ثانياً ـــ عبّاس باشا (١٢٦٤هـ/١٨٤٨م-١٢٧٠هـ/١٨٥٤م):

١ـــ سيرة وتاريخ

قبل أن ندخل في الموضوع علينا أن نتعرف هذه الشخصية التي تفاوتت الأقوال حولها، فمن مادح لدرجة الغلو لآخر قادح لحدِّ الإسراف؛ فمن هو عبّاس هذا؟ وكيف وصل إلى الحكم؟ وما هي أبرز أعماله؟ وما علاقته بالجزيرة العربية وأهلها؟

لقد كانت سيرته وأيام حكمه محل اختلاف وجدل بين من تناولوا سيرته، فهناك من أعلى شأنه وجعله في مصاف المصلحين والبناة وآخرين نسبوا إليه تدهور أحوال مصر وانحطاطها، ولذا أرى أن هذا الرجل لم يجد من يدرسه ويمحص سيرته، وما وقع في يدي من دراسات وبحوث كانت في مجملها تسيِّرها ميول محرِّريها السياسية ومذاهبهم الدينية دون التعامل مع هذه الشخصية بميزان العدل والإنصاف والنقد المتوازن.

---

(١)الرحلة، ١/٢٧٥.

(٢)ناقشت هذا الصراع جميلة العيسى في كتابها: الصراع البريطاني الفرنسي حول البحر الأحمر الرياض ٢٠٠١م أنظر مثلا: ص٤١-٢٠٧؛ وكتاب: هنري لورنس: الأصول الفكرية للحملة الفرنسية على مصر، ترجمة: بشير السباعي، القاهرة ١٩٩٩م ص١٦٧-١٧٩.

ونظراً لضيق المساحة المخصصة لهذا الجانب من البحث، نترك هذه القضية لكتّاب السير والمهتمين بتاريخ مصر وعلاقتها بالجزيرة العربية في هذه الفترة، ونعرض لسيرته بما يخدم موضوعنا بإيجاز:

هو عبّاس باشا بن طوسون بن محمد علي أخو إبراهيم باشا الذي قاد الهجوم على الدَّولة السُّعوديَّة الأولى وأسقطها [1]، كان مولده سنة ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م في مدينة جدة، وكان مقرباً لجدِّه الذي اعتنى بتربيه وتعليمه وتنشئته على الفروسية وتأهيله للمناصب العالية والقيادة، لأن والده توفي وهو طفل فتكفل به جدُّه محمد علي؛ ولذا كان على جانب من العلم والثقافة والحضور, في عهده، وفي عهد خلفه إبراهيم باشا تقلد عدداً من المناصب الإدارية المهمة كان آخرها منصب رئاسة الوزراء، وشهد أكثر الوقائع الحربية مع عمِّه إبراهيم باشا خاصة حروبه في الشام، وقد تولَّى الحكم في مصر بعد وفاته سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م لمدة خمس سنوات ونصف [2]، تمتعت فيها مصر بالسلام والهدوء وكانت في حاجة إليهما بعد سنوات من الإرهاق تسببت فيها سياسة محمد علي وابنه إبراهيم باشا التوسعية.

---

(١)هناك عبّاس آخر: هو عبّاس الثاني بن محمد توفيق، ويطلق عليه: عبّاس حلمي باشا الأول تمييزاً له عن هذا الأخير.

(٢)للمزيد عن هذه الشخصيَّة التي أثارت شكوك بلجريف واهتمامه بعد أن نهج نهجاً استقلاليّاً تحت لواء عربي، ربما ذهب ضحيَّة لهذا المشروع الذي لم يرضِ العثمانيِّين ولا الأوربيِّين. أنظر: على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر، القاهرة ١٣٠٦هـ ج١ ص٧٦. عبد الرحمن الرافعي: عصر إسماعيل، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة١٩٤٨م ج١.ص.١٠-١٢؛ جرجي زيدان: تراجم مشاهير الشرق في القرن التاسع عشر، القاهرة ٢٠١٢م ج١ ص٤٥-٦؛ خير الدين الزركلي: الأعلام، ٢٦١/٣؛ جمال بدوي: محمد على وأولاده، مكتبة الأسرة بالقاهرة ١٩٩٩م ص١١٨-١٢٤؛ عبّاس باشا الأول: أصول الخيل العربية، «مقدمة المحقق» تعليق وتحقيق: عبد الله عسيلان وآخرون، الناشر: مكتبة الملك عبد العزيز بالرياض ٢٠٠٧م ص٣٧؛ العنقري: حمد بن عبد الله، «عبّاس باشا وعلاقته بشيوخ القبائل العربية: فيصل الشعلان نموذجاً» مجلة الدارة بالرياض عدد٣ من سنة ١٤٣٣هـ ص١٩٧-٢٢٤؛ الموسوعة الحرَّة على الانترنت: ويكيبيديا مادة «عبّاس باشا».

كما انتشر الأمن في عهد عبَّاس باشا حيث ضرب على أيدي قطاع الطرق وطاردهم وقطع دابرهم، فأمن الناس شرورهم (١). كما اهتم بالتعليم والابتعاث الخارجي الذي جنت مصر فوائده في عهد خلفه (٢).

كما كانت له أعمال جليلة وغير مسبوقة خلال فترة حكمه، فقد اهتم بإصلاح الطرق ووسائل النقل لتسهيل حركة التجارة الداخلية والخارجية، فأصلح طريق القاهرة السويس لسرعة حركة التجارة مع البحر الأحمر. وفي عام ١٢٦٨هـ/ ١٨٥٢م شرع عبَّاس باشا في مدِّ السكة الحديدية من الإسكندرية إلى القاهرة، وكانت أول خط حديدي أنشئ في مصر بل في الشرق (٣) .كما اهتم بالعمارة الدينية فوضع حجر الأساس لمسجد السيدة زينب بيده، وصاحب ذلك احتفال كبير، كما شيد ورمم الكثير من المنشآت الوقفية والدينية (٤) .

وكان للزراعة والريّ حيِّز كبير من اهتمامه، فعمل على زيادة مساحة الأراضي الزراعية، إذ بلغت مساحة الأراضي الصالحة للزراعة في عهده ٤ مليون و٢٠٠ ألف فدان بعد أن كانت مليون و٨٥٦ ألف قبل حكمه، وقد ألغى سياسة الاحتكار (٥) .

وكانت وفاته في ١٨ شوال ١٢٧٠هـ الموافق ١٣ يوليو ١٨٥٤م حيث تم اغتيال عباس في قصره بتدبير من قبل أحد أفراد عائلته التي لم تكن على وفاق مع سياسته (٦)؛ خاصة وقد حاول منع أقربائه من ميراث جده محمد علي بحجة أنه أخذ من بيت مال المسلمين فيرد إليه (٧) ،

---

(١)الرافعي: عصر اسماعيل، ج١ ص١٢.أصر عبَّاس على تطبيق القصاص على الرغم من معارضة الباب العالي. أنظر: إلهام محمد ذهني: مصر في كتابات الرحالة البريطانيين في القرن التاسع عشر، القاهرة ٢٠٠٣م، ص٢٤-٢٦.

(٢) أمل شريف: «التعليم في عهد عبَّاس الأول» موقع ساس على الشبكة العنكبوتية.

(٣)زين العابدين شمس الدين نجم: مصر في عهدي عبَّاس وسعيد، طبعة دار الشروق ٢٠٠٧م ص ٣٠؛ ذهني: مصر في كتابات الرحالة البريطانيين ص٢٢-٢٣.

(٤) جورجي زيدان: تراجم مشاهير الشرق ..، ص٤٥.

(٥) الرافعي: عصر اسماعيل، ج١ ص١٢.

(٦)الزركلي: الأعلام ، ٣/٢٦١.

(٧)العنقري: «عبَّاس باشا ...» ص١٩٩.

كما أعاد المحاولة التي حاولها عمُّه إبراهيم وهي تحويل مسار ولاية العهد إلى أبنائه بدلاً من إخوته كما هو العرف السائد (١) .

كانت وفاته مخيبة لآمال أتباعه، ليس لانهيار مشروع نقل الحكم لابنه فقط بل لأصايله من الخيول العربية التي جمعها من كل مكان، ومقتنياته النفيسة التي احتفظ بها وأحبَّها وفيها نفائس المخطوطات، فبيعت بالمزاد وبأرخص الأسعار (٢).

وقد تولى الحكم من بعده عمّه سعيد الذي كان يصغره بشهور. وفي عهد سعيد هذا أصبح للأوروبيين نفوذ واضح في مصر (٣) .

سياسته الخارجية:

حاول أن ينأى بمصر عن التدخل الخارجي سواءاً الأوروبي أو حتى العثماني، وأظهر بغضه للأوروبيين خاصة الفرنسيين الذين جعلوا من مصر مركزاً لدسائسهم وأطماعهم وتصفية حساباتهم مع الإنجليز؛ ففضل الانغلاق مع مساوئه الكثيرة على التدخل الأجنبي (٤) ، لكنه دفع ثمن هذا الإجراء بحرب اقتصادية مدمرة، حيث تؤكد الوثائق أن عبَّاس باشا حين قُتل ترك مالية الدولة مدينة بما يقارب مائة مليون فرنك، ولامه البعض بسبب هذا التصرف؛

(١)نفسه، ص٢١١-٢١٢.

(٢)للمزيد عن هذه التركة أنظر: الأمير أ.غ. شيرباتوف والكونت س.أ.ستروغانوف: الخيل العربية الأصيلة، مراجعة وتحرير: عوض البادي، مكتبة الملك عبد العزيز العامة بالرياض ١٩٩٩م ص١٥٠-١؛ العنقري: «عبَّاس ...» ص٢١٩-٢٢٠.

(٣)شارل ديدييه:رحلة إلى الحجاز في النصف الثاني من القرن التاسع عشر الميلادي ١٨٥٤م، ترجمة محمد خير البقاعي، الرياض٢٠٠١م ص٤١-٢؛ ذهني: مصر في كتابات الرحالة البريطانيين ص٢٧.

(٤)شارل ديدييه: رحلة الحجاز ...، مقدمة المترجم ص١٣؛ إلهام محمد ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين في القرن التاسع عشر، القاهرة ١٩٩٥م ص٣٥-٤٢.

إلا أنه يمكن التماس العذر له لأن أعماله تشفع له فهي بحاجة إلى الصرف، ثم إن الغرب استهدفه بالحصار والمقاطعة التجارية فكان عليه أن يعتمد على إمكانات البلد المحدودة [١]. ويبدو من كتابات الكثير من الأوروبيين المعاصرين لعصره كراهيتهم الشديدة له ولسياساته [٢] ، وهذا ليس بالأمر الغريب بعد أن استغنى عن خدمات العديد منهم. وبالرغم مما عرف عنه — من خلال بعض الروايات– من وحشية مُفرطة، إلا أنه تمتع بشخصية مُستقلة ومَعرفة بحاجات وطنه بعيداً عن اعتبارات الطامعين في المناصب من الأوروبيين حوله، وكان يُفضل الأتراك على الأوروبيين والانجليز على الفرنسيين [٣]، كما أنَّ البعض حاول النيل من هذه الشخصية واتهامه بالإساءة للأقباط [٤] ، لكن باستقراء الأحداث في عهده نجد أن الأقباط قد حصلوا على حقوقهم [٥].

---

[١] ويحمده عبد الرحمن الرافعي على أنه لم يمد يده لأحد ولم يكبل مصر بالديون كما فعل من جاؤوا بعده. عصر اسماعيل، ٢٢/١-٢٣. ويعلل وزيره نوبار باشا لهذه الإجراءات الاقتصادية أيضاً، ويحمد له أنه لم يلجأ إلى القروض التي كبلت مصر في عهد خلفه وقدمتها لقمة سائغة للانجليز. مذكراته، صفحات متعددة من الكتاب.

[٢] شارل ديديه هو أحد هؤلاء الفرنسيين الذين كالوا لعبّاس التهم والنقائص فهو «المتوحش والمتعصب» لكرهه للأوروبيين حتى أنه حرم عليهم دخول الإسكندرية، لأنه لا يطيق رؤية القبعات، ولأن القاهرة «موبوءة بالطاعون الأوروبي» ويقصد به الوجود الأوربي، فقد بنى له قصراً خارجها في العبّاسية. رحلة إلى الحجاز، ص٥١-٢؛ وللمزيد يمكن الرجوع لكتاب: إلهام ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين، ص١٥٧-١٦٢.

[٣] الهام ذهني: مصر في كتابات الرحالة الفرنسيين ...، ص٣٦-٧.

[٤] أنظر: مثلاً موقع «أرشيف مصر» على الشبكة العنكبوتية؛ نانا جاورجيوس: «عبّاس حلمي الأول، الوالي المجنون الذي أبغض الأقباط» موقع حركة مصر المدنية على الشبكة العنكبوتية.

[٥] يتجلى ذلك في استمرار نشاط الكنيسة القبطية في المجال العلمي، حيث فتحت الكلية البطريركية ومدرستين للبنات وأخرى للبنين، على الرغم من توقف افتتاح المدارس في عهده بعموم مصر بل إغلاق بعضها، كما دعم مساعي الكنيسة الإصلاحية وبارك تولية البطريرك كيرلس الرابع. أنظر: Dunne, An introduction to the history of education in modern Egypt. London 1938, p.288-311-.G.Heyworth

علاقته بالجزيرة العربية:

من خلال استفتاء ما كتب حول علاقة عبَّاس باشا الأول بالجزيرة العربية وبأهلها، يبدو تعلقه بجزيرة العرب، إذ كان مولده في مدينة جدة [١]؛ وتذكر بعض المصادر أنه زار الجزيرة العربية والتقى بأهلها في أكثر من مناسبة حتى أنه كان فيها أثناء وفاة عمِّه إبراهيم باشا، فغادرها ليصبح حاكماً لمصر [٢] ، وظلت صورته حاضرة في ذاكرة عرب الجزيرة حتى وقت قريب [٣] .

وعند استعراضنا لما كتب عن هذه العلاقة فسنجدها تتخذ عدة محاور:

١ـ أولها مع الأسرة السعودية: إذ تشير أغلب المصادر إلى تعاطفه مع هذه الأسرة المنكوبة على يد عمِّه إبراهيم باشا، وأن عبَّاس كان كثير التردد على الإمام فيصل بن تركي في مكان إقامته بالقاهرة أثناء إقامته الجبريَّة فيها، وكان يأنس به ويرتاح إليه رغم أن عبَّاس باشا لم يكن في منصب قيادي حينذاك لوجود جدِّه محمد علي وعمِّه إبراهيم، لكن الثقة والصداقة حينئذٍ بلغت ذروتها بين الرجلين [٤] ، وسنجد صداها عندما يتسلم زمام الحكم.

---

(١)الزركلي: الأعلام ..، ٣/٢٦١؛ أحمد محارب الظفيري: الخيل عند العرب عز وكبرياء، الكويت ٢٠٠٠م ص٢٠.

(٢)حمد الجاسر, أصول الخيل العربية الحديثة, ص١٩٥.

(٣)جون فيلبي: قلب جزيرة العرب، مكتبة العبيكان الرياض ٢٠٠٢م ج١ ص١٩٨؛ أحمد الظفيرى: الخيل عند العرب، ص٢٤.

(٤)الظفيري: الخيل عند العرب، ص١٩-٢٠؛ عايض الروقي: «علاقات الدولة السعودية ...» ص٥٤٤.

وقد ألمحت بعض الروايات إلى دور خفي لعبَّاس باشا في إطلاق سراح الإمام فيصل بن تركي في عهد جدِّه محمد علي [١] ، ولما وصلت إليه السلطة أطلق سراح من تبقي منهم، وفقا لما ذكره المؤرخ نوبار باشا في مذكراته [٢].وتتفق المصادر والمراجع التاريخية على أن فترة حكم عبَّاس باشا الأول، كانت أزهى الفترات التاريخية لتطور العلاقات السياسية بين الدولة السعودية الثانية وحكومة مصر العثمانية [٣] ، حتى إنها تطورت لتصل إلى نوع من التبعية أو الالتزام بحمايتها من أطماع الطامعين خاصة في مرحلة قيامها في عهد مؤسسها فيصل بن تركي الصديق الحميم لعبَّاس باشا، إذ تشير الوثائق إلى مكاتبة والي مكة الذي يتبع مصر والدولة العثمانية في هذه الفترة، للمقيم البريطاني في الخليج في أوائل سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م مؤكداً ولاء الإمام فيصل بن تركي للدولة العثمانية وأنه يدفع خراجاً سنويا لخزينتها، ويرجوه عدم المساس بأملاك وحدود الدولة السعودية [٤] .

---

(١) دحلان: أحمد زيني، خلاصة الكلام في بيان أمراء البلد الحرام ، طبعة حجرية القاهرة ١٣٠٥هـ ص٢١٢-٣ ؛كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الاسلامية، ترجمة نبيه أمين فارس ومنير البعلبكي، بيروت١٩٧٧م ص٥٥٦؛ سعود بن هذلول: ملوك آل سعود، الرياض ١٩٦١م ص٢٥. ويعلق الدكتور عايض الروقي رحمه الله: «والرأي الراجح لدى بعض المؤرخين هو أن عبَّاس باشا الأول الذي كان مهيأً لولاية العهد وتولي الأمور في مصر بعد عمه إبراهيم باشا كان العقل المدبر والمساعد الأول لعملية تهريب الإمام فيصل بن تركي من مصر ومساعدته في العودة إلى بلاده، وهناك تقرير للسفارة البريطانية في إستانبول أشار إلى دور عبَّاس باشا الأول في إخراج الإمام فيصل بن تركي من مصر، وقد أشار سمو الأمير ر مساعد ابن عبد الرحمن في رواية شفوية عن عمته بنت الإمام فيصل بن تركي أن والدها كان يهدي الخيول إلى عبَّاس باشا، ويقول هذا صديقنا وساعدنا في الخروج من مصر». «علاقات الدولة السعودية الثانية مع مصر العثمانية» مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة واللغة العربية وآدابها، ج١٧، ع٢٩، صفر ١٤٢٥هـ ص٥٤٣-٤٤؛ للمزيد أنظر: أبو علية: الدولة السعودية الثانية، ص٨٦-٨٨؛ قاسم الرويس: «إضاءة وثائقية لملابسات عودة الإمام فيصل بن تركي الثانية من مصر» جريدة الرياض عدد ٢ رمضان ١٤٣٧هـ الموافق ٢٠ يونيو ٢٠١٦م.

(٢)مذكرات نوبار باشا، ترجمة جارو روبير، القاهؤة ٢٠٠٩م ص ٥٩،

(٣)أبو علية: الدولة السعودية الثانية، الرياض١٣٨٩هـ، ص١٥٣؛ عايض الروقي: «علاقات الدولة السعودية ..» ص٥٥٠.

(٤)عبد الفتاح حسن أبو علية: الدولة السعودية ، ص١٥٢.

لكن قد يطرأ عليها ما يكدرها، ففي أحداث سنة ١٢٦٨هـ/١٨٥٢م يشير ابن عيسى لقدوم عساكر كثيرة من مصر إلى المدينة المنورة، وأنه صاحب قدومها إشاعات كثيرة بأن هذه القوة ستتجه إلى نجد، وزاد من تأكيد تلك الأخبار أن بعض أفراد هذه القوة ومعها بعض رؤساء القبائل قد شنوا غارتين عسكريتين على عالية نجد في شهر رجب سنة ١٢٦٨هـ/١٨٥٢م، مما أثار حفيظة الإمام فيصل وجعله يعلن النفير للجهاد، إلا أنَّ عبَّاس قد بدد مخاوفه بتوجيه هذا الجيش إلى عسير (١) .

لكن المصادر تتوقف عند هذه العلاقة الحميمة التي ربطت الإمام فيصل منذ وجوده بالقاهرة بعبَّاس باشا والعامل المشترك الذي تطور مع الزمن وهو الهواية المشتركة بين الاثنين في محبة الخيل العربية واقتناء أصائلها؛ فبعد أن وصل فيصل إلى نجد واستقر به الحال في دولته الجديدة، أراد أن يكافئ عبَّاس على حسن صنيعه في مساعدته للعودة إلى دياره واستعادة حكمه، فلم يجد إلا الخيل التي يعشقها صديقه، فكتب إلى أعيان القبائل في نواحي الجزيرة يطلب تزويده بعينات من أحسن ما لديهم، وأرسلها إلى عبَّاس باشا الذي طار بها فرحاً، لكنه احتاج إلى توثيق أصولها ومعرفة سلالاتها، فأرسل يستفسر، لكن الإمام فيصل اقترح عليه أن يرسل وفداً لهذه المهمة، وهذا ما حدث، فسهل مهمة هذا الوفد للاتصال بزعماء القبائل والمهتمين بالخيل لتدوين ما يحتاجوه من معلومات ويتزودوا منها حسب حاجة إصطبل عبَّاس باشا، فكان ثمرة ذلك الكتاب المنسوب لعبَّاس باشا عن الخيل العربية (٢) .

---

(١)ابن عيسى: إبراهيم بن صالح: عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر، حققه وعلق عليه: عبد الرحمن بن عبد اللطيف آل الشيخ، ط. وزارة المعارف بالرياض (د. ت)، ص١٠٩.

(٢)عبَّاس باشا: أصول الخيل ..، مقدمة المحقق ص٣٨؛ حمد الجاسر: أصول الخيل العربية الحديثة، ص٥٧.

٢ـــ علاقته بالدعوة الإصلاحيَّة:

كان تأثره بدعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب الإصلاحية واضحاً، حتى عدَّه المؤرخ نوبار باشا من مؤيدي دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب [١]؛ ولعل تتلمذه على أحد مشائخ هذه الدعوة أثر في ذلك، فكما تشير الوثائق إلى قراءته على الشيخ أحمد بن حسن الأحسائي الحنبلي الذي أجاز عبَّاس بقراءاته عليه، وظل قريباً منه حتى وفاته سنة ١٢٥٧م١٨٤١م [٢] ، ولعل هذا من أسباب ميله نحو جزيرة العرب وأهلها مع ما سنذكره من مبررات أخرى لاحقاً.

ويمكن أن نستشف هذا التأثر بما أبداه من سلوك شخصي أو قرارات توحي بذلك، ويتجلى ذلك بعدة إجراءات تمت في عهده، منها:

- من بين العادات والتقاليد التي اتبعها عبَّاس باشا عندما يبلغ أحد أنجاله سنّ البلوغ يأمره بأن يباشر أداء الصلوات الخمس المفروضة في أوقاتها، كما أصدر عبَّاس باشا أوامره بحياكة شفتي إحدى نسائه لأنها مارست التدخين في جناح الحريم، ما يعني أنها خالفت تعاليمه [٣] . قام بإحياء شعيرة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مصر، ونفى السحرة والدجالين والمشعوذين إلى السودان [٤] ؛ وفي محاضرة لمحمد إسماعيل المقدم عن عبَّاس باشا أوضح أنه أدخل نظام الشاويشية إلى مصر، حيث يطوف الشاويش طوال الليل في الشوارع ليطمئن على استقرار الأمن ومنع الفاحشة [٥].

---

(١) مذكراته، ص ٥٩

(٢)العنقري: «عبَّاس باشا ...» ص٢٠١-٢.

(٣)نوبار باشا، مذكراته، ص ٥٩.

(٤) الزركلي: الأعلام ، ٢٦١/٣.

(٥)وهو نظام يشبه هيئة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أنظر: «خواطر حول الوهابية» موقعه على الشبكة العنكبوتية.

٣ــ علاقته بعرب شبه الجزيرة العربية:

أبدى عبَّاس باشا اهتماماً خاصاً بعرب الجزيرة منذ شبابه، وفتح بيته لهم في القاهرة، وحاول تقليدهم في شخصيَّته وسلوكه ولباسه [١]، وكذلك تقرَّب إلى العرب الموجودين بمصر وأعلى شأنهم، ما أحقد عليه خصومه الذين رأوه: «عطوفا على الأعراب البدو متغاضياً عن نشاطهم في السَّطو والنَّهب والتَّخريب، بل ويغدق عليهم الأموال، ويشجعهم على فرض الإتاوات على الفلاحين ويستخدمهم في إذلال المصريين»، وفقاً لما ذكره المؤرخ جمال بدوي في كتابه: محمد على وأولاده[٢] .

ويفيدنا الشيخ حمد الجاسر ـ رحمه الله ـ في كتاب مخطوطة عبَّاس باشا «أنه كان قد تشاجر مع عمه إبراهيم باشا حاكم مصر، فسافر إلى بلاد العرب، وحلَّ ضيفاً على فيصل بن شعلان شيخ قبيلة الرَّولة وذلك في سنتي ١٢٦٣و١٢٦٤هـ وظلَّ هناك حتى وفاة إبراهيم باشا، وبعد وفاته سنة ١٢٦٤هـ غادر عبَّاس باشا الجوف وتسلم الحكم في مصر[٣]، ما يعني علاقته المتوطدة وثقته بعرب الجزيرة.

ولو بحثنا عن سببٍ مقنعٍ لسلوكه هذا، لوجدناه في مقته للفرنسيين والانجليز الذي عاثوا في أرض مصر فساداً في هذه الفترة، ونهبوا خيراتها وتعالوا على أبنائها، فكانت ردة فعله أن يبحث عن الحليف المناسب الذي وجده في عرب البادية الذين يشاركونه هذه المشاعر،

---

(١)بلجريف: ، ٢٢٨/١. العنقري: «عبَّاس ...» ص٢٠٦.

(٢)ص ١١٩

(٣)أصول الخيل العربية الحديثة, ص١٩٥. وقد بالغ البعض لدرجة قولهم: أنَّ منطقة الجوف قد خضعت لنفوذ عبَّاس باشا حتى عام ١٢٦٩هـ واستدلوا بقول عبيد بن رشيد من ضمن قصيدته :

يادار ياللي من ورى غرَّ الأطعاس لا تحسبين إني من البعد ناسيك

العام خلّيتك على شان عبَّاس وإلا لابن شعلان ماني مخليك

(موقع منطقة الجوف وخضوعها لابن شعلان .. منتديات عنزة على الشبكة العنكبوتية)

ويتحلون بالصدق والشهامة والشجاعة التي يعشقها عبَّاس، يضاف إلى ذلك مصاهرته للعرب، وكان أبوه من قبله قد تزوج من إحدى القبائل العربية أثناء إقامته بالجزيرة العربية[1] فكان ذلك سببا في انجذابه إليهم ومحبته لهم.

إلى جانب أنه كان مولعًا بالخيل، التي تتوافر أصائلها عند عرب الجزيرة، والتي اعتنى بتربيتها عناية كبرى، وبنى لها الإسطبلات الضخمة وأنفق عليها بسخاء شأنه شأن هواة الخيل المهووسين. فكان سعيه الحثيث لاقتناء أجود الجياد الأصيلة التي كان يجلبها من مختلف البلاد ومن بدو الجزيرة العربية الذين يملكون أنقاها وأجملها [2]، مدخلاً لعلاقة أعمق وإيجاد أرضية مشتركة للتفكير بمشروعه الذي سعى إليه، متخذاً من عملية البحث عن الجياد الأصيلة وسيلة للتواصل وجسّ النبض لدى من التقى بهم من زعماء القبائل أو من تواصل معهم عبر مناديبه.

وقد أضحت مخطوطة عبَّاس باشا عن أصول الخيل العربية في جزيرة العرب[3]مصدراً مهماً له شأنه لدى المهتمين بالخيل العربية الأصيلة؛ وكان هذا العشق لدى عبَّاس باشا لهذه الخيل هو الذي ربط هذه العلاقة المتينة بينه وبين شيوخ القبائل داخل الجزيرة العربية، وهي التي ربما دفعته للتفكير بمثل هذا الحلف أو التقارب السياسي.

---

(١)العنقري: «عبَّاس ....» ص٢٠٦ هـ (٢٠).

(٢)توقف الرحالة جورج أوجست فالين الذي زار الجزيرة العربية في هذه الفترة مجال الدراسة، عند اهتمام عبَّاس باشا بخيول عرب الجزيرة العربية، وذكر تولعه بخيول شمر، وأن وفوده كانت تتردد على هذه النواحي للبحث عن أحسن الخيول العربية وأنقاها. رحلات فالين إلى جزيرة العرب، ترجمة سمير شبلي ومراجعة يوسف يزبك، ط. بيت الوراق بغداد ٢٠٠٩م ص١٥٤-٢٤٩،٥.

(٣)تعتبر هذه المخطوطة الثمينة والمهمة جدًّا في مادتها ومحتواها، والتي تناولت بالتفصيل والتوثيق موضوع الخيل عند قبائل جزيرة العرب من أهل البادية وأهل الحاضرة مهمة جداً، ففي هذه المخطوطة النفيسة أسماء الخيل الأصيلة وأسماء مرابطها وأنواع سلالاتها وأسماء ملاكها ومربيها وتجارها الحريصين على شرائها واقتنائها، وضمن سياق الكلام في كتاب أصول الخيل أو مخطوطة عبَّاس باشا، يأتي ذكر أسماء حكام ذلك الزمان وأسماء شيوخ قبائل العربان ورجالاتها وأسرها وفرسانها، في شبه الجزيرة العربية، وفي الكتاب المطبوع لهذه المخطوطة، نجد انه يحوي على معلومات غزيرة مفيدة للباحث في هذا المجال. وقد ألف الشيخ حمد الجاسر . رحمه الله .كتاباً عن الخيل العربية الحديثة ضمنه نسخة منقحة من هذه المخطوطة، ثم أعادت نشرها مكتبة الملك عبد العزيز بالرياض في طبعة أنيقة سبق الإحالة لها والتعريف بها.

وقد أشار بلجريف إلى أحد هؤلاء وأهمهم، وهو فيصل الشعلان الذي ارتبط اسمه بمشروع عبَّاس باشا حسب بلجريف، فمن تكون هذه الشخصية ولماذا اهتم بها كل هذا الاهتمام؟ يعد فيصل بن نايف الشعلان أحد شيوخ العرب وفرسانها وأحد العارفين بالخيل وشئونها، وزعيم قبيلة الرَّولة المشهورة، ويرتبط بعائلة الجربا شيوخ قبيلة شمر بالعراق من جهة أمه، كانت له صولات مع القبائل المجاورة لقبيلته انتهت بمقتله سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٤م حسب أشهر الأقوال[١].

ونظراً لاهتمام عبَّاس باشا باقتناء أجود سلالات الخيل العربية ومهارة فيصل الشعلان بمعرفة أصايلها وأصولها، فقد أصبح محظياً لديه، يستشيره في أمورها وما يريد شراءه منها [٢]، كما كان للمكانة المؤثرة التي حظي بها هذا الزعيم القبلي بين أقرانه من زعماء القبائل العربية [٣]، وزعامته لإحدى هذه القبائل الكبيرة ومكانته لدى أخواله من زعامات قبيلة شمر العريقة، وللموقع الاستراتيجي الذي تحتله قبيلته بين بادية الشام والجزيرة العربية، فقد حظي باهتمام الحاكم المصري. وقد استثمر فيصل هذه العلاقة ومدَّ نفوذه على حساب القوى المحيطة به، وقد أورد العنقري مساجلات شعرية تدور حول هذا الصراع والنفوذ من عدة مراجع [٤] .

---

(١)للمزيد أنظر عن هذه الشخصية: الشمري: طلال عيادة، عقود الجوهر في المختار من تراجم فرسان العرب الأواخر، مطبعة السيوف الذهبية، الكويت ٢٠٠٦ ج١ ص٢٤٤-٥.

(٢)العنقري: «عبَّاس ...» ص٢٠٩؛

(٣)أشاد الرحالة بهذا الزعيم القبلي وما يتمتع به من نفوذ واحترام بين قبائل هذه الجهة من القبائل العربية. أنظر على سبيل المثال: الليدي آن بلنت: رحلة إلى بلاد نجد، ترجمة محمد غالب، منشورات دار اليمامة، الرياض ١٩٧٨م ، ص٣٩-٤٠؛

(٤)«عبَّاس ...» ص٢٠٩-٢١١.

خضع أميرها عبد الله بن رشيد لسطوة السلطة الجديدة وأصبح تابعا لمصر، لكنهم أرهقوا كاهله بالالتزامات التموينية واللوجستية للقوات المصرية المتواجدة في الجزيرة العربية، ما جعل ابن رشيد ينتهز أي فرصة للتخلص من هذا الكابوس، وفعلاً كان هروب فيصل بن تركي متنفساً له ليعلن انضمامه له بل والوقوف معه بكل إمكاناته (١)، وحافظ ابنه طلال على هذه العلاقة الوطيدة مع الدولة السعودية الناشئة، لكنه ظل يحتفظ بعلاقات طيبة مع مصر خاصة في النواحي الاقتصادية والثقافية، أما السياسية فقد شابها الحذر أمام مشاريع عبَّاس باشا التوسعية داخل مناطق النفوذ لهذه الإمارة، وأصبحت تتوجس منها دون أن تقف في وجهها (٢).

ثالثاً ـــــ مشروع عبَّاس باشا: التحالف مع القبائل العربية في الجزيرة العربية

١ــ فكرته ــ أهدافه ــ أطرافه:

لو عدنا إلى الوراء قليلاً لوجدنا أن فكرة جمع لواء العرب في كيان واحد كانت موجودة قبل مجيء عبَّاس باشا، فقد كان جدُّه محمد علي نفسه يفكر في إنشاء إمبراطورية عربية تحت لوائه، حتى ولو أدى ذلك لاقتطاعها من الدولة العثمانية، وما حروبه في الشام إلا تمهيداً لهذا المشروع الذي اصطدم بعقبة الإنجليز الذين وقفوا في وجه مشروعه واستعانوا بالفرنسيين وزينوه للعثمانيين أنفسهم، مما اضطر معه, وتحت ضغوطهم, للانسحاب من الشام بل والجزيرة العربية، وهذا ما كان يراود ابنه إبراهيم الذي أصبح عربياً أكثر من العرب، ولذا فقد كان يحكي في مجالسه الخاصة أنه ينوي إحياء القومية العربية وإعطاء العرب حقوقهم وتحقيق الوحدة العربية (٣) ، وسواءً كانت هذه الشعارات لكسب مجد شخصي أم بدوافع صادقة، فإنها بلا شك تركت أثرها في عقلية الشاب الذي سيصبح حاكماً لمصر فيما بعد وهو عبَّاس باشا.

---

(١)عبد الفتاح أبو علية: الدولة السعودية ...، ص٨٨-٩؛ خليف الشمري: طلال ...، ص٣٨٥.

(٢)خليف الشمري: طلال ...، ص٣٩١.

(٣)حول هذا الموضوع يمكن الرجوع للبحث الذي كتبه الدكتور عمر عبد العزيز في منتدى الحوار الذي أقامته مكتبة الإسكندرية بعنوان: «عصر محمد علي وتحديث مصر ما له وما عليه» منشور على الشبكة العنكبوتية، وقد عرض لأقوال عدد من الباحثين في هذا الصدد.

من ناحية أخرى، نتذكر أنَّ وسط الجزيرة العربية قد تعرض لهجوم شرس من قبل الحكومة المصرية بتوجيه من الباب العالي في الآستانة وبتشجيع من الإنجليز، وتنفيذ من محمد علي أدى لسقوط الدولة السعودية الأولى وتدمير عاصمتها الدرعية، وعندما عاد الإمام فيصل بن تركي وأعاد كيان آبائه وأجداده فيما اصطلح عليه باسم «الدولة السعودية الثانية»، عادت المخاوف والتوجسات تراود حكومة محمد علي من نفوذ وتمدد الدولة الجديدة،

وقد ظهر ذلك على شكل مناوشات وتهديد مبطن إلا أن الإمام فيصل بذكائه قد بدَّد هذه التخوفات لدى الحكومة المصرية وأشعرهم أنه لن يخرج عن رأيهم ومشورتهم [١]، لكن مع ذلك نجد محمد علي يوفد السويدي جورج فالين للجزيرة العربية سنة ١٢٦١هـ/١٨٤٥ للتعرف على القوة المنافسة للإمام فيصل في جبل شمر وإمكانية التحالف معها ضد السعوديين [٢] ، لكن الأيام لم تطل بهذا الكهل لتصل السلطة لحفيده عبَّاس باشا بعد مدة يسيرة من ولاية عمِّه إبراهيم باشا، فحاول انتهاج سياسة استقلاليَّة وتحولت الفكرة أو الطموح إلى لعب دور أكبر وتنمية فكرة القوميَّة والوطنيَّة ضدَّ الأوربيِّين، خاصَّة الفرنسيِّين الذين كانوا أصحاب نفوذ في مصر، بعد أن استغنى عن الكثيرين منهم، ولذا فقد كان عبَّاس مثار سخط الكتاب والمؤرِّخين الفرنسيِّين [٣] ، ويبدو أنَّه أراد لأفكاره ورُؤاه صدًى إعلاميّاً ووقعاً عمليّاً، ففكَّر في مشروعٍ يستقلُّ به عن الباب العالي وينصِّب نفسه ملكاً على العرب؛ مشروعه هذا كان محلّ اهتمام بلجريف،

---

(١) أبو علية: الدولة السعودية ..، ص١٥٠، ١٥٣.

(٢) ديفيد جورج هوجارث: احتراق الجزيرة العربية، ترجمة صبري حسن، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة ٢٠٠٥م ص١٩٥-٦؛ علماً أن يوسف يزبك مراجع الكتاب بعد ترجمته، ينفي عن فالين هذه التهمة ويذكر أن مصدرها هو هوجارث نفسه الذي وشى به عند السعوديين بالرياض ونسب إليه عمالته لمحمد علي ومشروعه التوسعي في جزيرة العرب. أنظر: فالين: رحلات فالين إلى جزيرة العرب، ص١٥.

(٣) أنظر: شارل ديدييه: رحلة إلى الحجاز، ص٦١ الموسوعة الحرة، ويكيبيديا ، مادة «عبَّاس باشا».

ولذا فقد كانت فرصة سانحة ليبحث هذا الموضوع مع الأمير متعب الرَّشيد شقيق الأمير طلال[١] أيَّام وجوده في حائل،

وفعلاً وجد ضالَّته لدى هذا الأمير، الذي كشف له عن خبايا هذا المشروع أو الحلم، الذي يعتمد في أساسه على التَّحالف المزدوج مع البدو في الشَّمال، ومع الحكومة السُّعوديَّة في الجنوب، وحكومة حائل في الوسط، ويضيف بلجريف أنَّ عبَّاس باشا (قد ابتكر خطة لا يستقل بمقتضاها فحسب عن الباب العالي العثماني، وإنما ليصبح هو نفسه ملكاً على الجزيرة العربية عن طريق هذا التحالف المزدوج [٢])، ويؤكد لوريمر من جانبه على مشروع عبَّاس باشا ويسميه مخططاً يهدف منه بتحالفه مع هذه الأطراف (أن يعلن استقلاله عن الباب العالي وسيادته على شبه جزيرة العرب) [٣].

ويروي بلجريف أنَّ عبَّاس من جانبه وتأكيداً على مُضِيِّه قُدماً في هذا الطَّريق، ولكسب وُدِّ رجال البادية، فقد عهد بابنه الذي لا يزال طفلاً لفيصل الشّعلان شيخ قبيلة الرّولة [٤]

---

(١) يبدو أنه مسؤول العلاقات الخارجيَّة في حكومة أخيه، لكثرة أسفاره حسبما يذكر بلجريف، فمرة في إيران وأخرى في العراق وثالثة في مصر وسوريا.

(٢) ومصدر معلومات متعب حول هذا المشروع هي تلك الوفود التي تصل إلى البلاط الحائلي من الرَّولة، كما يقول بلجريف. الرحلة، ٢٣٠/١. لكن لا نستبعد أنه كان قريباً من تفاصيله خاصة إذا وضعنا في الاعتبار سفراته إلى مصر وغيرها والتي أشار إليها بلجريف في مكان آخر من كتابه أنظر: الرحلة، ٢٢٦/١-٨.

(٣) دليل الخليج ، ترجمة مكتب أمير قطر، الدوحة ص١٧٢٨.

(٤) قال بلجريف إنه ابنه «الأكبر» ص٢٢٨؛ والواقع أنه كان آخر أبناء عبَّاس باشا واسمه محمد صديق، أرسله بعد ولادته إلى فيصل الشعلان زعيم قبيلة الرَّولة في حدود سنة ١٢٦٨هـ/١٨٥٢م، لكنه مرض بعد وفاة والده مباشرة ولم يلبث إلا قليلاً فتوفي في ٢٨ من ذي الحجة سنة ١٢٧٠هـ الموافق لـ ١ سبتمبر ١٨٥٤م وعمره عام وحوالي التسعة شهور. أنظر: العنقري: «عبَّاس باشا ....» ص٢١٣ خاصة وثائق الإرشيف العثماني التي اعتمد عليها الباحث.

ليتولَّى تربيته وتنشئته ويشبّ عن الطّوق في ربوع البادية ويصبح كأحدهم [١] ، وتتالت هداياه وهباته لزعماء العشائر الآخرين، وفتح بيته لهم في القاهرة مرحِّباً ومستضيفاً، وحاول تقليدهم في شخصيَّته وسلوكه ولباسه، لكسب رضاهم وولائهم [٢] .

ويسوق لنا أحد الباحثين سبباً وجيهاً في مشروع التحالف أو التقارب بين عبَّاس وزعماء القبائل، وهو الإستقواء بهم ضدَّ عمِّه إبراهيم الذي حاول إبعاده عن ولاية العهد وحرمانه من الحكم وتنفيذ مشروعه الكبير لضم شمل العرب في كيان واحد[٣] ، لاسيما وأنَّ إبراهيم يحقد عليه منذ صغره نظراً لحظوته عند جدِّه محمد علي وعدم التوافق في الرؤية والتوجه، وفعلاً بدأ إبراهيم خطواته العملية لإبعاد ابن أخيه وتنصيب ابنه على كرسي الحكم، ما أغضب عبَّاس وجعله يغادر القاهرة متجهاً إلى الجزيرة العربية لاجئاً إلى الحجاز ثم إلى الجوف حيث صديقه وحليفه ابن شعلان، وظل هناك حتى وفاة عمِّه إبراهيم، إذ لم يمهله القدر ليتم مشروعه، حيث فاجأته المنية لينادى بعبَّاس حاكماً لمصر[٤] .

ويضيف الباحث خليف الشمري في كتابه عن طلال الرشيد اعتماداً على وثائق استقاها من الإرشيف العثماني، أنَّ لهذا الحلف أهدافاً أخرى منها: الاستعانة بعرب الجزيرة من خلال هذا المشروع لضم سوريا إلى سيطرته مستغلاً انشغال الباب العالي بحربه مع الروس، ويعلل ذلك بتحركات عملية للقبائل في كل من سيناء وجبل شمر والجوف ومنها قبيلة الرَّولة لمهاجمة قبائل تقع ضمن نطاق ولاية سوريا وأنّ هذه الهجمات خلقت حالة من الفوضى أربكت والي سوريا،

---

(١) أشار ديديه إلى هذا الموضوع أيضاً وعدَّ الأسباب نفسها التي دفعت بعبَّاس باشا لترك ابنه بينهم بعد زيارة قام بها. رحلة إلى الحجاز ص٨٨.

(٢) الرحلة، ١/٢٢٨.

(٣)العنقري: «عبَّاس ....» ص٢٠٣-٤ . وهو ما أشار إليه حمد الجاسر وعزاه إلى عدم اطمئنان عبَّاس على عرشه. أصول الخيل العربية، ص١٩٦ .

(٤)حمد الجاسر: أصول الخيل، ص١٩٥ .

مما اضطره للشكوى للباب العالي والتذمر لدى عبَّاس باشا نفسه [١] ؛ ولهذا الرأي وجاهته لأن طموح عبَّاس استعادة نفوذه على الشام الذي فقده جدَّه محمد علي قبل ذلك بضغط من الإنجليز [٢] .

كما يُستشفُّ من مذكرات شارل ديدييه، الذي يرى أن عبَّاس باشا كان يتقرب إلى عرب مكة مثلما يداهن بدو سيناء والحدود السورية ليدعموه هذه المرة في مشروعه الهادف لتنصيب ابنه والياً على الحجاز، مع أن الباب العالي كان يحاول التخلص من الحجاز لأنها كانت تكلفه مبلغاً كبيراً من المال كل سنة، هو بأمس الحاجة له بهذه الظروف التي تمر بها الخلافة العثمانية [٣] .

هذه الأسباب التي أشرنا إليها أو بعضها، كانت كافية لدفع عبَّاس باشا للمضي في مشروعه الطموح، لكن الأقدار لم تمهله، إذ كانت يد الغدر له بالمرصاد، حيث قُتِل غدراً، بالإضافة إلى أنَّ شركاء التحالف ممن وضع فيهم عبَّاس باشا آماله وبنى عليهم مطامحه، لم يتحمسوا للفكرة لسبب أو لآخر كما سنرى بعد قليل.

---

(١)ص٣٩١. ويؤكد هذه الفكرة ديدييه وأن عبَّاس باشا يحاول أن يعيد أمجاد جده محمد علي في سوريا الذي أجبرته أوروبا على التخلي عنها. رحلة إلى الحجاز ص٨٨.

(٢)في مؤتمر لندن الذي عقد سنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م فرض على محمد علي الانسحاب من الشام. على باشا مبارك: الخطط التوفيقية الجديدة لمصر، ١/٧٥-٧٦؛ خليف الشمري: طلال ...، ص٣٨٦.

(٣) رحلة إلى الحجاز ص٢٠٧

٢ـــ نتائجه:

مهما تعددت الأسباب الداعية لهذا الحلف الذي سعى إلى إنشائه عبَّاس باشا وتنوعت، ومهما كانت العوائق إلا أنَّ فكرة المشروع كانت قائمة، والشروع في خطواتها العملية قد بدأت، سواء اقتنعت كل الأطراف المعنية أو تردد بعضها، لكن مصداقية الطرف الأهم في هذا المشروع وهم القبائل العربية التي بنى عليها عبَّاس آماله وطموحه لا يمكن الوثوق بها على رأي الأمير الحائلي متعب الرشيد كما ينقل عنه بلجريف، والذي يصفه بأحد «أولئك الذين مكنتهم خبرتهم الطويلة من تقييم الموضوعات تقييماً سليماً» إذ صرح برأيه في هذا الموضوع قائلاً بصريح العبارة الرُّجل الذي يعتمد على مساعدة البدو له، يشبه ذلك الذي يحتِّم على نفسه أن يُبنَى له بيتاً على سطح الماء [1]، ويعلل ذلك بأسباب وتعليلات مطوَّلة، فالبدو حسب متعب الرشيد: «لا وزن لهم في المعارك الحربية الخطيرة لافتقارهم للأسلحة والتجهيزات والانضباط العسكري، علاوة على ضعفهم الكامل في المعارك المشتركة، لأنهم منقسمون إلى فرق وطوائف شتى بسبب صراعاتهم الصبيانية المستمرة التي لا تسمح لهم بالتوحد حول أي هدف من الأهداف الجديَّة حتى ولو لمدة شهر واحد ويستطرد الأمير: (علاوة على كل ذلك هم مخلوقات اللحظة وحسب، فلا يهمهم سوى اللحظة الحالية، ولكن الأمس والغد عندهم لا شيء ويشتطّ في حكمه: والبدو ليس لهم أي هدف أو مبدأ وطني أو ديني، وليست بينهم روابط اجتماعية أو شعور وطني، كل واحد منهم منعزل على مصالحه الذاتية والجميع ضد الجميع» ويواصل: «والبدو لا يهتمون بمن هم خارج عشيرتهم، أو حتى برجال قبيلتهم، إلا بقدر ما يصيبون منهم من منافع مباشرة» فهم «أصدقاء اليوم أعداء الغد، ثم أصدقاء من جديد بعد غد فإذا كان هذا حالهم مع أبناء جلدتهم فلا بدَّ أن يكونوا كذلك مع الغرباء عنهم،

---

(١)الرحلة ، ١/٢٢٩.

سواء أكان سلطاناً أو نائباً أو تركياً أو مصرياً أو إنجليزياً أو فرنسياً فالكل عندهم واحد، فهم لا يتعاطفون مع أيٍّ من هؤلاء، وليسوا على استعدادٍ أن يرتبطوا بواحد أو بآخر، فمحاباتهم الحقيقية والوحيدة تكون لمن يدفع أكثرثم يواصل حديثه: بأنَّ البدوي يخدمك ما زال طعامك في بطنه، وعلى شرط استفادته من هذا العمل الذي يؤديه وليس فيه مشقة عليه، في هذه الحالة، من الممكن أن يقدم لك الماء والجمال، أو يؤدون المهمة المطلوبة منهم حتى ولو كانت مهاجمة ونهب القرى المجاورة، أو القبائل الأضعف منهم، مقابل دفع الأجرة أو الغنائم، ويؤكد أنهم على «أتمِّ الاستعداد للانقلاب على حليفهم أو صديقهم السابق بل وينهبوه في اللحظة التي يتأكدون فيها أنه لم يعد قادراً على تقديم المزايا لهم أو لا يستطيع مقاومتهم [١] .

بهذه الكلمات القاسية كان تقييم الأمير متعب لحلفاء عبَّاس من قبائل العرب الذين عوَّل عليهم كثيراً في قيام هذا المشروع، وسواء أكان هذا الكلام الذي أورده بلجريف على لسان متعب حقيقة أو تقوَّله على لسانه، فيصعب الموافقة على بعض هذه الأحكام القاسية الواردة فيه، ويبدو أنه وجد هوًى في نفس بلجريف، فهذا الكلام يمثل وجهة نظره المنحازة ضد البدو التي صرح فيها بأكثر من مناسبة [٢] .

ويسترجع بلجريف أحداث مضت ووقائع مشابهة حدثت، وهي رحلة الفرنسي لاسكاريس lascaris ورفيقه فتح الله الصايغ الذي وصل إلى الجزيرة العربية وتعمق داخلها حتى وصل الدرعية سنة ١٢٢٥هـ/١٨١٠م، والتقى بالإمام سعود بن عبد العزيز وعرض عليه مسألة التحالف مع فرنسا ضدَّ كل من العثمانيين والإنجليز، لكن الفكرة لم ترق لأصحاب الشأن بالدرعية، فعاد أدراجه خائباً، وهنا ينتقد بلجريف السلطات الفرنسية التي وثقت بمثل هذه الأفكار وأغدقت على مروجيها الأموال، ومنحت الهبات لزعماء القبائل،

---

(١)الرحلة ، ١/٢٢٩.

(٢)توقفنا عندها في بحثنا عن: القصيم في رحلة بلجريف.

ويشكك في أصول الأحداث التي أوردها فتح الله واعتمدها لامارتين Lamartine في روايته عن المشرق العربي، بل وبالسفارة ذاتها التي ادَّعى لاسكاريس القيام بها إلى العاصمة السعودية، ويتأسف على الهبات والعطايا التي بذلت لدرجة أن بعض «القبائل اغتنت بفعل الذهب الأوروبي» (١) ، ويقارن ما حدث بمشروع عبَّاس باشا هذا الذي نحن بصدد الحديث.

ويَصِلُ في النِّهاية إلى زبدة الموضوع، وهو فشل المشروع من أساسه «فالمواثيق توقَّع وتُختم، وتُعطى عُهودٌ بوعودٍ لم تتحقَّق قَطّ، ثم يختفي كلّ شيء مثل أمواج المياه» لاسيَّما وقد اغتيل صاحب هذا المشروع عبَّاس باشا دون أن تقرّ عينيه بنجاح مشروعه، ولا حتى بابنه الذي ذهب ضحيَّة كميَّة من السمِّ دُسَّت له كما يروي بلجريف نفسه (٢) ، وبهذا ينتهي التَّحالف المصري البدوي الحلم كما بدأ (٣)، شأنه شأن لاسكاريس الذي حاول الشيء نفسه من قبل. ولم ينجح عبَّاس باشا إلاَّ في شيء واحد فقط – حسب تعبير بلجريف – هو «قناعة العرب كلّهم بحماقته (٤)».

لكن إذا وافقنا بلجريف بفشل المشروع فلن نوافقه بكيفية وفاة ابنه وأنه كان بجرعة سمٍّ دسَّت له في طعامه بعد وصول أخبار وفاة عبَّاس باشا ، لاسيما ولدينا وثائق توضح طبيعة هذه الوفاة، وأحداثها المأساوية، ففي البحث الذي كتبه العنقري عن عبَّاس باشا (٥)، أورد عدة وثائق عن ملابسات هذه الوفاة وكيف حدثت وما هي الإجراءات التي اتبعها فيصل الشعلان ليبرئ ساحته من دم هذا الطفل،

---

(١)الرحلة، ٢٣٠/١.

(٢)توفي هذا الطفل حينما كانوا في أنحاء بصرى وحوران فأمر ابن شعلان أن يدفن في مسجد مبرك الناقة في بصرى المذكورة، وأن يرمم هذا المسجد لأجله، بعد أن كان خراباً، فتمّ ذلك في سنة ١٢٧١هـ/١٨٥٥م. العنقري: «عبَّاس ...» ص٢١٣؛ موقع د. أسامة الشعلان على الانترنت.

(٣)الرحلة، ٢٣٠/١.

(٤)نفسه، ٢٣١/١.

(٥) الرحلة، ٢٣٠/١.

إذ جمع شيوخ القبائل ليشهدوا وفاة الطفل محمد صديق بن إسماعيل باشا والصلاة عليه ودفنه، لكن أخاه الأكبر إبراهيم إلهامي بن عبَّاس باشا، أرسل مندوبه إلى فيصل الشعلان لاستقصاء الأمر، كما أرسل والي الشام مندوباً آخر للموضوع نفسه، لكن ابن شعلان كان قد احتاط للأمر، فطلب من شيوخ القبائل الذين شهدوا الوفاة والدفن تدوين محضر بهذه الحادثة، ذكروا فيه قصة مرضه ثم وفاته، سلموا نسخة منها إلى مندوب إلهامي وأرسل ابن شعلان نسخة أخرى لوالي الشام (١).

كما أن طبيعة عادات وتقاليد العرب لا تسمح بمثل هذه التصرفات المشينة، فهو في ضيافتهم وجوارهم، ولن يسمحوا لأيٍّ كان أن يمسَّه بسوء، فكيف يوجه بلجريف لابن شعلان مثل هذه التهمة الخطيرة؟ قد يكون هناك إهمال في الرعاية والعناية، لكن أن تصل إلى تسميمه فهذا مستبعد جداً.

ومن خلال كلام بلجريف نستشف أن عبَّاس باشا أرسل ابنه كرهينة على صدق نواياه في مشروعه «وتأكيداً على مُضِيِّه قُدماً في هذا الطَّريق، ولكسب وُدِّ رجال البادية، فقد عهد بابنه الذي لا يزال طفلاً لفيصل الشّعلان شيخ قبيلة الرَّولة» (٢)، وهذا غير صحيح أيضاً لأنَّ هذه العادة كانت متبعة في أسرته،

---

(١) أورد العنقري نصوص هذه المراسلات التي استقاها من الإرشيف العثماني تصنيف ٢٠٩/٩٩ A.MKT.UM
أنظر: «عبَّاس باشا ...»
الصفحات: ٢١٣-٢١٨.

(٢)قال بلجريف إنه ابنه «الأكبر» الرحلة ص٢٢٨؛ والواقع أنه كان آخر أبناء عبَّاس باشا واسمه محمد صديق، أرسله بعد ولادته إلى فيصل الشعلان زعيم قبيلة الرَّولة في حدود سنة ١٢٦٨هـ/١٨٥٢م، لكنه مرض بعد وفاة والده مباشرة ولم يلبث إلا قليلاً فتوفي في ٢٨ من ذي الحجة سنة ١٢٧٠هـ الموافق لـ ١سبتمبر ١٨٥٤م وعمره عام وحوالي التسعة شهور. أنظر: العنقري: «عبَّاس باشا ....» ص٢١٣ خاصة وثائق الإرشيف العثماني التي اعتمد عليها الباحث.

فجدُّه محمد علي كان يرسل أبناءه للبادية لينشؤوا على الفروسية والفصاحة وينعموا بالهواء النقي[١]. ثم إن مثل هذا الإجراء عادة ما يكون من الطرف الأضعف وليس الأقوى الذي تمثله مصر بكل إمكانياتها.

موقف الأطراف الأخرى:

رأينا تحليل بلجريف في قضية اعتماد عبَّاس باشا على القبائل وزعمائها، وكيف فشل هذا التحالف، فماذا عن الأطراف الأخرى التي سعى إلى استقطابها؟

تعامل السُّعوديُّون مع هذا المشروع بحذر واستقبلوه بتحفُّظٍ، دون أن يُعطوا رأياً تاركين للأيَّام وحدها لتقول رأيها، وقد أسهب بلجريف هنا بأسباب الرَّفض ومبدأ التَّحفظ الذي أخذ به هؤلاء وردَّه في مجمل الأحوال إلى أسباب مذهبيَّة وسياسيَّة [٢]. لكن يبدو أن العلاقة الحميمة التي تربط بين الإمام فيصل وعبَّاس على المستوى الشخصي لم تدفع الطرف الأول للاستعجال في إعطاء الضوء بالمغامرة والدخول في مشروع عبَّاس، بل آثر التريث والانتظار والدفع بالتي هي أحسن، للمحاذير التي يراها والعوائق التي لا تخفى في الحيلولة دون قيام مثل هذا الحلف خاصة من طرف القوى الكبرى آنذاك من عثمانيين وأوروبيين.

كما أنَّ على عبَّاس أن يقدر الظروف السياسية التي تمرُّ بها هذه الدولة الناشئة حسب ما يراه بلجريف، فإلى جانب السلطة المركزية التي تعمل بها، فهي تسترشد بمبادئ دينية ووطنية محددة، كما أنه من الظلم الجائر مساواة هؤلاء بالبدو المتقلبين الذين لا يمكن الاعتماد عليهم؛ لذا فهو قد أساء فهمهم، ولم يدرك حجم التزامهم الديني الذي ينظر لعبَّاس نفسه بريبة، ولذا لا يُستغرب عدم وثوقهم بعبَّاس باشا ولا بمشروعه،

---

(١) العنقري: «عبَّاس ...» ص٢١٣. ويذكر الدكتور أسامة الشعلان في موقعه على الشبكة العنكبوتية: لشهرة الرَّولة بالفروسية فقد أرسل خديوي مصر عبَّاس باشا الأول بن طوسون أحد أولاده إليهم ليتمرن عندهم على معيشة الخشونة والفروسية, ولعله كان يرمي بذلك إلى الإقتداء بالخلفاء الأمويين.

(٢) الرحلة ، ٢٣١/١.

خاصة وأن جراحهم التي تسبب بها جدُّه محمد علي لم تبرأ بعد، لكن مع ذلك نجد أنهم «لم يرفضوا التحالف المعروض عليهم رفضاً قاطعاً أو يوقفوا سيل المبعوثين ... واستمر الوهابيون في إنعاش آمال اللين والتعاون، مثل من يستعمل السنارة لاصطياد أسماك النيل السخيفة[١]،

ويقول: «إن الملك الوهابي . شأنه شأن البدو أيضاً . مع اختلاف في الدوافع، يضع الهدايا في جيبه ويسخر هو الآخر من مهديها[٢]. من جهة أخرى، فهو يضع اللوم على عبَّاس نفسه، الذي أخطأ في اختيار نقطة البداية، وتحيَّز للرياض وحكامها، ما ساعد على الانصراف عن مشروعه، لأنَّ «الناس الذين نفضوا عنهم نير محمد نفسه لم يكن محتملا أن يشتاقوا لوضع أعناقهم تحت نير ابن سعود وابن عبد الوهاب [٣]، طبعاً هذا الكلام أسخف من أن يناقش، لأن أهل الجزيرة العربية ما زالوا يدينون بالإسلام الذي جاء به محمد (ﷺ) من ربه، وما زالوا يخضعون في أغلب أجزائها لنفوذ حفيد ابن سعود ويأخذون بمذهب ابن عبد الوهاب الإصلاحي عن رغبة واقتناع.

أما حائل: فقد تعاملت مع مشروع عبَّاس باشا بالحيطة والحذر، حيث اتسم أميرها طلال بن عبد الله الرشيد [٤] (١٢٣٨هـ/١٨٢٢م – ١٢٨٣هـ/١٨٦٧م)

---

(١) الرحلة ، ١/٢٣١.

(٢) نفسه، ١/٢٣٢. ويبالغ هنا في حجم الهدايا التي تلقاها الإمام فيصل بن تركي لدرجة أن صناديقه امتلأت بهدايا عبَّاس، وأنه رأى بناته حين مروره بالرياض يتألقن بمجوهرات ومشغولات ذهبية من صنع القاهرة، وهو كلام سخيف، فمتى كانت المرأة تلتقي بالأجانب وتعرض زينتها في نجد؟ وألم يعلم بلجريف أن فيصل وأسرته كان مقيماً في القاهرة طيلة السنوات التي مضت وبإمكانه شراء ما يريد من حليها لبناته، وإذا كان قد تلقى شيئاً من هذه الهدايا التي ذكرها فهي لا توازي شيئاً أمام الخيول الأصيلة التي أهداها لإسطبل عبَّاس.

(٣) الرحلة، ١/٢٣٣.

(٤) أخطأ بلجريف هنا حينما أشار إلى عبد الله بن رشيد كحاكم لحائل أثناء تبني عبَّاس باشا لمشروعه، والواقع أنه ابنه طلال. الرحلة:١ / ٢٣٣

بالحنكة والمناورة السياسية، ولذا نجد أنه ابتعد عن مناورات عبّاس باشا منتظراً فرصة أحسن، وجدها بمجيء خلفه للحكم سعيد باشا المنفتح على أوروبا، حيث كان الأمير طلال يأمل أن يحصل من أوروبا على تطوير بلاده صناعياً وتجارياً كما يروي بلجريف (١).

من ناحية أخرى، ترى حكومة حائل أنها بمنأى عن أيّ خطر يشكله الأوربيون والإنجليز بصفة خاصة، فحائل تحيط بها الصّحاري الشاسعة الخالية من الدروب من كل النواحي، وتقع وسط متاهة من الجبال والصخور الشديدة الانحدار، ما يجعلها آخر مكان في العالم يخشى غزواً فرنسياً أو احتلالاً انجليزياً، ويشير في هذا الصدد إلى استطاعة هذه الإمارة تحقيق أرباح طائلة عن طريق التبادل التجاري مع جيرانها خاصة إيران، وإن توقفت المفاوضات بشأنها خلال حكم عبّاس باشا، لكنها عادت من جديد بعد وفاته (٢) .

ويحمّل عبّاس باشا تبعة فشل المشروع الذي وُضع في غير أهله، فلا عَرَب البادية محلّ للثقة، ولا الأسرة السُّعوديّة قريبة العهد بجرائم عمّه إبراهيم هي من يعوّل عليها في مثل هذا التّحالف؛ ولا حائل التي لن تستفيد شيئاً ذا جدوى من هذا المشروع. وهنا تأتي وجهة نظر بلجريف في هذا الموضوع: «خير له (عبّاس باشا) أن يجد القبول والتّفاعل بين الحضر والفلاّحين، الذين يشكّلون شريحة كبيرة بين سكّان الجزيرة العربيّة، ويحملون الفكرة القوميّة، ويعشقون الحريّة والنّظام وانسياب التّجارة، وهو ما أدركه النّبي محمّد (ﷺ) عندما اعتمد عليهم في نشر رسالته وتحقيق الأهداف التي سعى إليها (٣) .

---

(١)نفسه ، ١/٢٣٣-٤٤؛ الشمري: طلال ... ص٣٩١.
(٢)الرحلة، ١/٢٣٤.
(٣)نفسه، ١/٢٣٢.

وفي إشاراته الأخيرة إيحاءات لمن يهمُّهم أمر هذه المنطقة، أو يفكِّرون في إيجاد مراكز نفوذٍ لهم في جزيرة العرب خاصَّة الفرنسيِّين، فالإنجليز يتمركزون في سواحلها ولا يهتمون بما يجري في داخلها إلاَّ بما يحفظ أمنهم واستقرارهم، بينما داخل الجزيرة كحائل والقصيم، متروك لحاله مع أنَّه يستحقُّ الاهتمام والمغامرة، لكن بشرط عدم الوقوع فيما وقع فيه عبَّاس باشا.

٣ـ الإطاري الزماني والمكاني للمشروع:

بعد استعراضنا لسيرة صاحب هذا المشروع وقبله عرَّفنا بالرحالة بلجريف الذي يعود له الفضل في نبش مثل هذا الموضوع الذي أغفلته المصادر المعاصرة، نتوقف عند الإطار الزماني والمكاني لمشروع التحالف هذا، وما هي القبائل التي استهدفها؟ وهل ينطبق على هذا المشروع شروط وإجراءات الحلف أم أنه مجرد «كسب ولاءات» قد يستفاد منها عند الضرورة؟

حينما نستعرض اهتمامات عبَّاس باشا بالخيل منذ شبابه، ونرى ولعه بها والبحث عن أصائلها التي وجدها في جزيرة العرب لدى رجال قبائلها وحكام ولاياتها، ما جعله يرسل مناديبه للبحث عنها في مظانها، أعتقد أنَّ هذا الاحتكاك والتواصل ولَّد لديه المحبة لهؤلاء الرجال لما يتمتعون به من أنفة وشموخ ووفاء، فيبدو لنا أن فكرة الخيول تطورت إلى فكرة سياسية تجمع أصحاب هذه الهواية في حلف أو تقارب، يلمُّ شتاتهم ويوحد رؤاهم التي هي في صميمها متجانسة ضد أطماع المستعمر الأجنبي، بمعنى أنها تنامت حتى حان وقت تطبيقها عندما أصبح عبَّاس باشا يملك القرار بعد أن آلت إليه السلطة سنة ١٢٦٤هـ/١٨٤٨م ويمكن أن نحدد السنتين الأخيرتين من حكم عبَّاس لوضع هذه الفكرة محل التنفيذ، لكن لم تمهله الأيام ليبلور مشروعه في شكله الذي يفكر فيه، ولم يتضح لنا شيئاً ذا قيمه من بنوده لنستطيع الحكم له أو عليه، فكل ما لدينا هي توجسات عملاء الفرنسيين والإنجليز وخوفهم من تقارب عبَّاس مع العشائر في الجزيرة العربية وأطرافها الشمالية، حاولوا أن يستبقوا الأحداث ويقطعوا الطريق على حدوث مثل هذا التقارب الذي من المؤكد أنه لن يكون في صالحهم،

ولعل الوثائق تكشف لنا في مستقبل الأيام ما يلقي الضوء ويجلي الغموض حول مستوى هذه العلاقة بين مصر في عهد عبّاس باشا الأول وبين قبائل الجزيرة العربية، وهل وصلت إلى مستوى متقدم يمكن تصنيفه بأنه تحالف له أجندته وأهدافه؟

أما الإطار المكاني: فهو الآخر يحتاج إلى تحديد، فالجزيرة العربية واسعة وقبائلها متعددة، فعلى افتراض وجود هذا الحلف، فمَن من القبائل انضوى تحت رايته أو تعاطف مع فكرته؟ من المؤكد أن مناديب عبَّاس باشا كانت تجوس خلال مضارب العشائر العربية قبل وبعد حكمه، بحجَّة بحثها عن الخيول العربية الأصيلة، وكان الإمام فيصل بن تركي يسهل مهمة هؤلاء المناديب، ويشفع لهم لدى زعماء القبائل لتسهيل المهمة وتحقيق المقصود، فتوصلوا إلى الكثيرين منهم في شتى نواحي الجزيرة، وصار لعبَّاس أحباب وأصحاب أشادوا بمكارمه وبذله في أشعارهم، وقد استعرض بعض الباحثين أسماء هؤلاء الموفدين ومن قصدوه من رجالات القبائل ووجهائها [1] ،

مما يدل على تشابك العلاقات وتجذُّرها، وتوسع إطارها المكاني، لذا من الصعب حصر هذه القبائل التي قبلت بالدخول في تحالف عبَّاس باشا المحتمل، وليس لدينا ما نجزم به سوى من صرَّح باسمه بلجريف وما أكدته الوثائق وهو فيصل الشعلان زعيم قبيلة الرَّولة ومن دار في فلكها، ممن أسماهم ابن شعلان «جمعية عُمَد العربان[2] وهي التي استقرت في الجوف وامتدت مراتعها نحو الشمال حتى بادية الشام، يضاف لها عشائر أخرى متناثرة هنا وهناك، في الحجاز وسيناء.

---

(١) عباس باشا الأول: أصول الخيل العربية، معظم صفحات الكتاب؛ أحمد الظفيرى: الخيل عند العرب، ص٢٢١-٢٢٥.

(٢)وثيقة الارشيف العثماني تصنيف ٢٠٩/٩٩ A.MKT.UM والتي نشرها الباحث حمد العنقري في بحثه عن: «عبَّاس ...» ص٢١٧.

٤ــ النتائج والتَّوصيات:

- من يتعمق فيما كتبه بلجريف ويقرأ ما بين سطوره، يظهر له بوضوح حنقه على عبَّاس باشا لتبنيه هذا المشروع الطموح الذي يبدو أنه موجَّه ضد المستعمرين من فرنسيين وإنجليز، حاداً من أطماعهم . على الأقل . داخل شبه الجزيرة العربية، إذ حاول كسب عربها من خلال استثارتهم ضد هؤلاء الذين يُطلق عليهم في الشرق . حسب تعبير بلجريف نفسه . «كلاب البحر» ويُقصد بهم الأوروبيون وبصفة أخص الإنجليز [١] .

ويحمل على عبَّاس بعنف حينما يتهمه بالتبذير وعدم الحنكة السياسية التي تحلى بها عمُّه إبراهيم باشا من قبله، وأنه لم يحسن الاستفادة من التجربة العائلية والخبرة الموروثة، وهذا أمر لا يغتفر لأي حاكم من الحكام [٢] ، وهذه وجهة نظر مرفوضة تلغي الإبداع والتميز والتصحيح والتقييم التي من المفترض أن يقوم بها أي حاكم أو مدير جديد ليصبح له بصمة تميزه عمن سبقوه، وإلا أصبح نسخة كربونية تتكرر فيها الأخطاء والنقائص؛ بالعكس من ذلك أراه قد أدرك أهمية شبه الجزيرة العربية وقيمة أهلها في تحقيق رغبته في الاستقلال ببلاده عن سطوة ونفوذ الأجانب، وأكد أن امتداد مصر وتقاربها يجب ألا يخرج عن محيطها العربي والإسلامي الذي يحقق لها القوة والمكانة.

وتتكرر عبارات التقليل من شأن هذا الحاكم والغض من قدره فيما سجله عنه بلجريف مسايراً لزملائه الغربيين، ويصف حكمه بالمشئوم [٣] ، وهذا شيء طبيعي من رجل جاء من المعسكر المستعمر الذي يقف ضد أي تقارب أو وحدة أو حتى تفاهم بين أبناء الوطن الممزق والكيان المنتهك، وقد تكون حركة عبَّاس تصب في هذا الاتجاه الذي يحاربه سادة بلجريف.

---

(١)الرحلة /٢٣٤.

(٢)نفسه ، ٢٢٨/١.

(٣) الرحلة، ٢٣٤/١.

ويكفي مشروع عبَّاس هذا، أنه سبق حركة الشَّريف حسين [1] بعشرات السِّنين، لتفعيل دور العرب في بلادهم، لكن هذا المشروع لم يكن مقنعاً للأطراف الاستعماريَّة التي عرقلته، ووقفت في وجه صاحبه، وقبلها استغلت الشَّريف حسين وتوجُّهاته القوميَّة ضد العثمانيِّين، ودعمته باسم حركة التَّحرر العربيَّة، ليفرز لنا ذلك اتفاقيَّة سايكس بيكو [2] التي مزَّقت البلاد العربيَّة إلى أشلاء وكيانات كرتونيَّة.

- من خلال استقصائنا لما كتب في موضوع حلف عبَّاس باشا الذي روَّج له بلجريف ونفخ فيه، لم نجد فيه شروط الحلف ولا مقوماته، يمكن أن نصفه بالتقارب أو حتى «لمّ الشَّمل» التي حاول أن يصبغ بها عبَّاس علاقته بالعشائر العربية بمعنى أنا منكم وأنتم مني، لكن أن يرتقى إلى حلف عسكري له أجندته وخططه فهذا لم نجده فيما توفر لنا من معلومات؛ لكن بلجريف على طريقته في تضخيم الأمور حاول أن يخلق من هذا الموضوع حدثاً مهماً ذا بال تجعل منه مكتشفاً وذا قدر وقيمة حينما يعزف على وتر حساس يقلق الغرب. قد تكون أدواتنا في البحث والتقصي خاصة في الأراشيف المصرية والعثمانية والانجليزية والفرنسية قاصرة ولم تصل إلى ما يجلي حقيقة هذا الموضوع، لكننا حكمنا على ما توفر لنا ووقع تحت أيدينا، آملين أن تظهر الأيام وهمَّة الباحثين ما يلقي الضوء عليه ويزيح غموضه وخفاياه.

---

(١) حسين بن علي الهاشمي مؤسس المملكة الحجازية الهاشمية وأول من نادى باستقلال العرب عن حكم الدولة العثمانية. ولد في إسطنبول سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م حينما كان والده منفياً فيها فألم باللغة التركية وحصل على إجازات في المذهب الحنفي. ثم عاد إلى مكة وعمره ثلاث سنوات، قاد الثورة العربية الكبرى متحالفاً مع البريطانيين ضد الدولة العثمانية لجعل الخلافة في العرب بدل الأتراك في سنة ١٣٣٤هـ/١٩١٦ ولقب بملك العرب. للمزيد: الموسوعة الحرة ويكيبديا مادة: الشريف حسين، أو استعراض محرك جوجل للاطلاع على العديد من البحوث التعريفية بهذه الشخصية وثورتها المشئومة.

(٢) هي اتفاقية الدول الاستعمارية لتقاسم تركة الدولة العثمانية وتمزيق أشلاء الوطن العربي إلى كيانات سياسية بين هذه القوى. للمزيد: أنظر: الموسوعة الحرة ويكيبيديا، مادة اتفاقية «سايكس بيكو». أو محرك البحث «جوجل» ليضع أمامك العديد من البحوث والدراسات حول هذه الاتفاقية.

لكن دراسة هذا الموضوع أفادتنا بمكانة مصر ودورها المتعاظم في الجزيرة العربية في عهد عبَّاس باشا، سواء بين القبائل العربية أو الكيانات السياسية القائمة آنذاك، وهو في مجمله دور سلمي ليس فيه استعلاء أو فرض نفوذ بقدر ما هو تقارب أخوي يهدف إلى خير الطرفين، وأرى أنه يحتاج إلى تسليط الضوء من قبل الباحثين والدارسين من المهتمين بتاريخ هذه الفترة.

– حظي عبَّاس باشا بمحبَّة وتقدير عرب الجزيرة وأعلنوا ذلك في أشعارهم ومسامراتهم، ولدينا العديد من هذه الأبيات التي أوردها بعض الباحثين أمثال: أحمد الظفيري الذي كتب فصلاً أطلق عليه: «عبَّاس حيّاً في وجدان البدو والشِّعر» وأورد فيه العديد من هذه النُّصوص [1] .

– أخيراً: حاولتُ دراسة فكرة هذا المشروع ودواعيه ووضعتُ مبررات وقوعه ونتائجه، مع ترك الباب مفتوحاً لدراسات لاحقة ومتخصِّصة لتجلية هذا الحدث الذي يعدُّ مشروعاً عربيّاً للتَّحرر من الهيمنة الغربيَّة، التي جثمت على أغلب المناطق العربيَّة ولم يسلم منها إلاَّ وسط شبه الجزيرة العربيَّة، والذي سبق «الثَّورة العربيَّة الكبرى» التي قادها الشَّريف حسين، ووقعت بحبائل الانجليز ودسائسهم، فزادت الأمر سوءاً وشرعنة الاستعمار وثبَّتت أركانه.

---

(١) الخيل عند العرب، ص٢٤، وصفحات أخرى متعددة من كتابه المذكور؛ وانظر: «حديث الذكريات» في جريدة الرأي العام العدد ١٤٠٦٥ بتاريخ ٢٣ ديسمبر٢٠٠٥م.